صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية

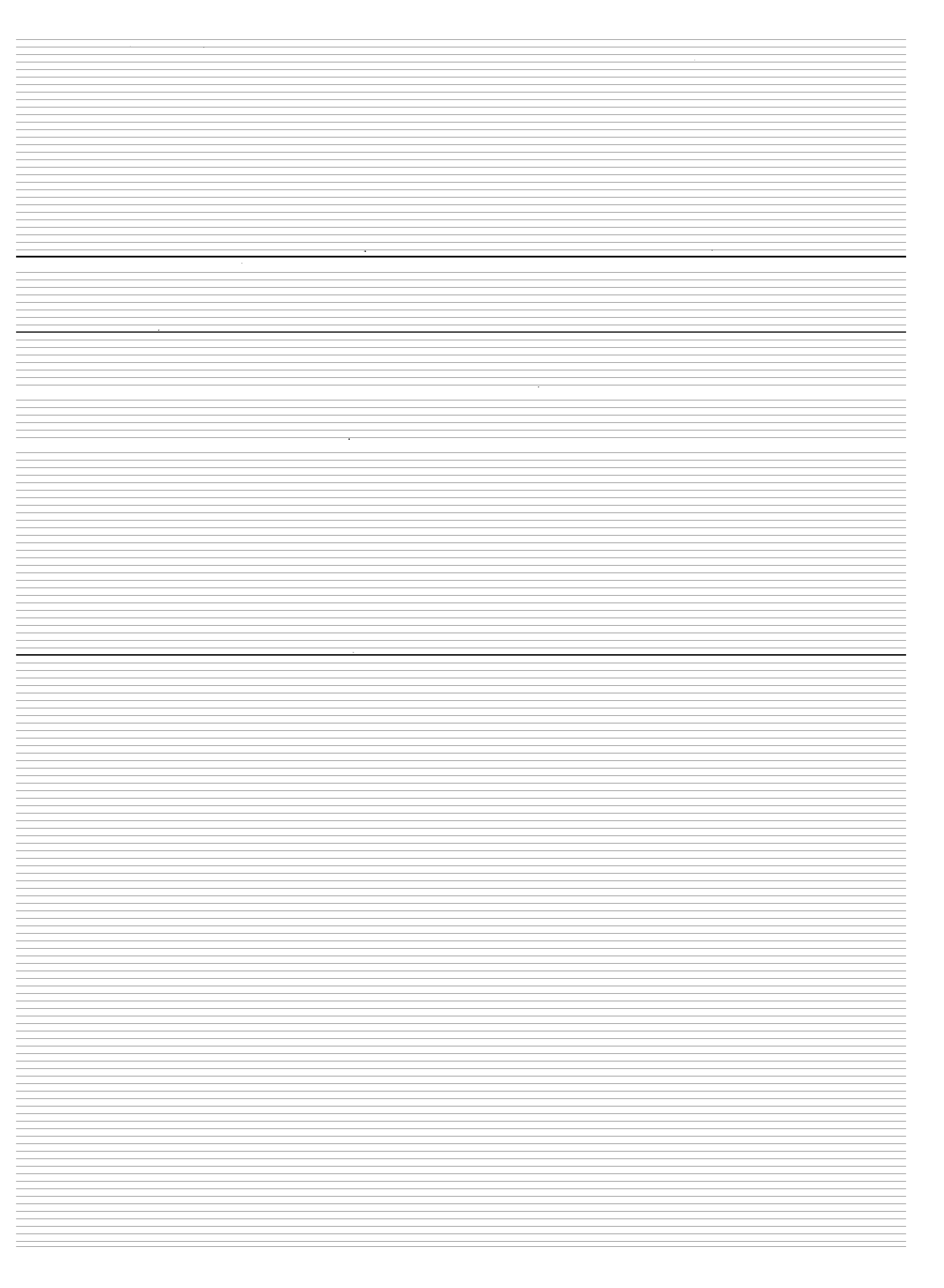
سفارة ليوتبراند أسقف كرمونا إلى القسطنطينية ٩٦٨م

دراسة تاريخية نقدية

د. على أحمد محمد السيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية – فرع دمنهور



الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أتقدم بهذا العمل إلى المهتمين بقراءة التاريخ ودراسته، وبصفةٍ خاصة إلى المعنيين بتاريخ العصور الوسطى والتاريخ الأوربى فى تلك الفترة. وأتمنى أن يكون ذا نفع للقارئ العربى، وهذا هو منتهى رجائى. وأريد أن أؤكد فى هذا الموضع على ضرورة بذل المزيد من الجهد والاهتمام بدراسة المصادر التاريخية البيزنطية والأوربية فى العصر الوسيط نظرًا لقلة هذا النوع من النتاج العلمى، خاصةً وأن المكتبة العربية تفتقر إليه ولا يسعنى إلا أن أذكر أولئك العلماء الذين سبقونى على درب تيسير وصول مصادر التاريخ البيزنطى إلى القارئ العربى، ومنهم الأستاذ الدكتور / السيد الباز العرينى –رحمه الله– والأستاذ الدكتور / محمود سعيد عمران أطال الله عمره، وذلك على سبيل المثال. وما من شكٍ فى أن تلك الدراسات تحتاج إلى مزيد من الصبر والمثابرة لدقة العمل فيها وتعدد اللغات المستخدمة لإنجازها، بيد أنها تفتح آفاقًا رحبة فى مجال الدراسات التاريخية والوقوف على حقيقة المجتمعات الأوروبية فى العصر الوسيط.

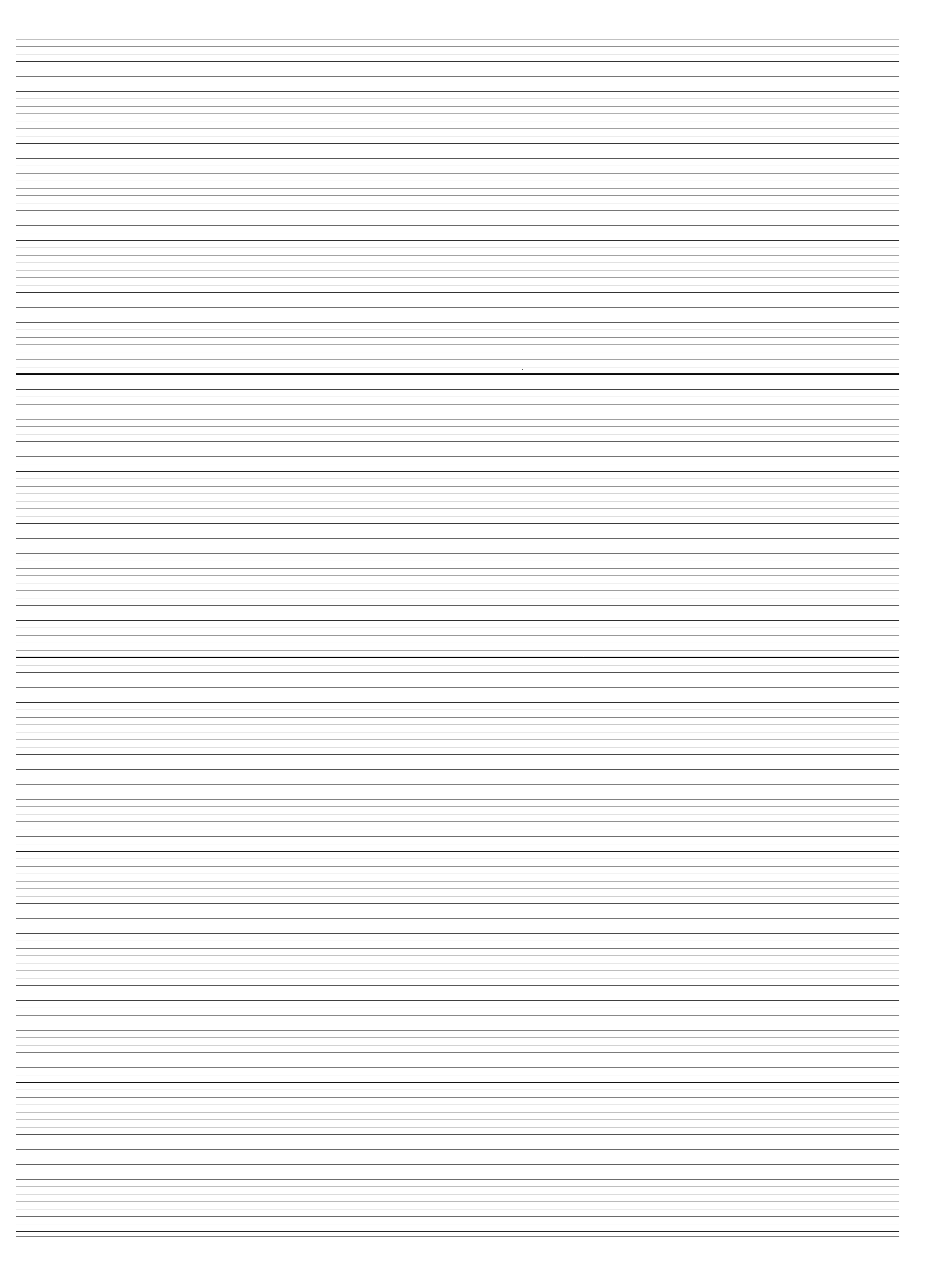
وما توفيقى إلا بالله

عليه توكلت وإليه أنيب

د. على أحمد السيد

كلية آداب دمنهور

جامعة الإسكندرية



تمهيد

إن رواية ليوتبراند أف كرمونا **Liutprand of Cremona**[١] (٩٢٠-٩٧٢م) لأحداث بعثته إلى مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، فى عام ٩٦٨م، تعد من المصادر التاريخية المهمة، ليست بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية فحسب، وإنما بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب الأوربى، وبالتالى فى تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية والبابوية داخلها. وقد أُحضِر ليوتبراند صغيرًا فى عام ٩٢٧م إلى البلاط اللمباردى فى مدينة بافيا **Pavia** وهناك نشأ نشأةً دينيةً جعلته ينخرط فى الوظائف الكنسية حتى بلغ منصب الأسقف فى مدينة كرمونا القريبة من مدينة بافيا الإيطالية عام ٩٦١م، فاقترن اسمه بكليهما، وقد رأت بعض الدراسات الحديثة فيه صورةً للرجل اللمباردى[٢] المتشبع بالثقافة الرومانية.

وقد أخذ هذا النص المهم الذى يتميز بأصالته من ملحق الكتاب الذى يضم مجموعة هندرسن المصدرية **Henderson's Source Collection** وقد عمد هذا الناشر إلى تصنيف تلك المادة فى الملحق[٣] نظرًا لطبيعتها الروائية التى تختلف عن الطبيعة الوثائقية لبقية المجموعة، ويُعرف هذا العمل باسم "تقرير عن السفارة إلى القسطنطينية" **(Relatio de Legatione Constantinopolitana)**[٤] وهى السفارة التى كان مبعوثًا فيها من قِبَل أوتو الأول الكبير **Otto I The Great** ملك ألمانيا من سنة ٩٣٦ - ٩٦٢م وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (٩٦٢ - ٩٧٣م) ومعه ابنه وشريكه فى الحكم أوتو الثانى

---

(١) ورد الاسم فى المصادر والمراجع المثبتة فى الدراسة برسوم مختلفة، منها : ...Liutprand, Luitprand

(٢) Christie, Neil, The Lombards, (The Ancient Longobards), fst. publ., U.S.A., 1995, p. 225.

(٣) Liutprand of Cremona, A Report of his Mission to Constantinople, 968 A.D., Ed. and trans. by Henderson Ernest F., in Select Historical Documents of the Middle Ages, London 1910, p.p. 440 - 477.

(٤) Liutprand Bishop of Cremona, Relatio de Legatione Constantinopolitana, in: Opera, ed. by Becker, J., (Die Werke Liutprands von Cremona) (Hanover / Leipzig 1915).

إمبراطورًا (٩٦٧ – ٩٧٣م)، ثم منفردًا حتى وفاته ٩٨٣م[1] إلى نقفور فوقاس الثانى Nicephorus Phocas II إمبراطور الدولة البيزنطية (٩٦٣ – ٩٦٩م)[2].

وضمن ليوتبراند فى تقريره نص المحاورات التى دارت مع رجال القصر فى القسطنطينية ووصفه للأوضاع التى عاشها وتقييمه للكثير من الأمور خدمة لسيديه وإضافةً إلى هذا العمل، فقد دوَّن ليوتبراند كتابًا آخر فى الحرمان والعقاب وحمل عنوان Antapodosis هاجم فيه خصومه من رجال البلاط الملكى فى روما، حيث كانت بداية عمله[3] فى السلك الدبلوماسى.

والثابت أن ليوتبراند قام بزيارة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية مرتين بصفته سفيرًا، وكان والده وكذلك زوج أمه قد عملا كسفيرين من قبل هناك، وقد منحته مهامه الرسمية فرصةً عظيمةً لجمع المعلومات مباشرةً دون وسيط، فغدا شاهد عيان فى كثير من المواقف. ذلك أن صاحب هذا التقرير حينما كان يعمل شماسًا فى الكنيسة خدم فى بلاط هيو البروفنسالى

---

(١) Vasiliev, A. A., The Byzantine Empire, Madison 1952, p. 328.

(٢) ينحدر نقفور من أسرة فوقاس، وهى أسرة عريقة لها سمعتها العسكرية فقد كان جده وعمه وأبوه إضافة إلى إخوته قد برزوا فى ميدان القتال خاصةً ضد المسلمين. يرجع وصول نقفور إلى عرش الإمبراطورية إلى أن الإمبراطور رومانوس الثانى Romanus II (٩٥٩ – ٩٦٣م) ترك طفلين هما بازيل Basil وقسطنطين Constantin فتولت أمهما ثيوفانو Theophano الوصاية عليهما، التى تحولت إلى نقفور ليدعم سلطتها. وما أن دخل نقفور القسطنطينية حتى أصبح الرجل الأول فى الإمبراطورية مستندًا إلى حب الشعب وكثير من القادة، فنودى به إمبراطورًا، وبالفعل تم تتويجه فى ٩٦٣م، ثم تزوج ثيوفانو فأصبح رجل الساعة. راجع : كمال الدين بن أبى جرادة (ت٦٦٠هـ): زُبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق وتقديم : سهيل زكار، طبعة أولى، ٢ج، دمشق (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م) ج١، ص١٣٨.
Psellus, M., Chronographia, Ed. and trans. into English by Renauld, E., 2 vols, Paris, 1926 - 1928; Diehl, Charles, Figures Byzantines, Première série, Paris, 1992, p.p. 225 - 6, 231.

(٣) Ker,W.P., The Dark Ages, vol.I, ed. in Periods of European Literature, 8vols, by Saintsbury-London, 1904, p. 183; Cf. also; Runciman, S., The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign, Cambridge, 1963, p.4
هذا ويمكن مراجعة النص الكامل لهذا العمل فى :
Liutprand Bishop of Cremona, Antapodosis in : Opera, ed. by Becker, J. (Die Werke Liutprands von Cremona) (Hanover / Leipzig, 1915).

Hugh of Provance[1] وهـو مـن يُطلـق عليـه مجازًا ملـك إيطاليـا (٩٢٦ – ٩٤٩م)، وخليفته برنجـار الثـانى Berengar II[2] (٩٥٠ – ٩٦١م). وبعدمـا أحس بالغربة جراء ما دب من مشاكل بينه وبين أقرانه بلغت حد الخصومـة مـع برنجار، ألقت بظلالها على أسلوبه ضده فى كتاباته[3]، انتقل لخدمة أوتـو الكبـير وابنه أوتو الثانى. وخلال فترة عملـه الطويلـة تلـك زار ليوتـبراند القسـطنطينية ضمن سفارته الأولى لها فى عام ٩٤٩م، مبعوثًا إلى بـلاط الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع Constantine VII[4] (٩١٢– ٩٥٩م). وفـى عـام ٩٦٣م، قام الإمبراطور أوتو الكبير بإرسال ليوتبراند مبعوثًا إلى روما حيـث البابـا يوحنـا

---

(١) Ker, W.P., Op. Cit., p. 183.

وهو الملك هيو ابن أدلبرت ابـن لوثـير الثانى أحد أحفـاد شـارلمان ويعرف أيضًـا باسـم هيـو أف أرل Hugh of Arles. حكـم إيطاليـا اسميًـا مـن ٩٢٥ – ٩٤٩م، وتزوجـت ابنتـه برتـا مـن الإمـبراطور البيزنطى رومـانوس الثـانى Romanus II (٩٥٩ – ٩٦٣م) ابـن الإمـبراطور قسـطنطين السـابع Constantine VII (٩١٢ – ٩٥٩م). انظـر : قسـطنطين بورفـيروجنيتوس: إدارة الإمبراطوريـة البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق : محمود سعيد عمران، بيروت ١٩٨٠، ص٩٥هـ٢، ٩٧–٨.

(٢) كان حاكمًا على مقاطعات إيطاليا الشمالية الخاضعة لحكم اللمبارد، وأهّله لذلـك كونـه حفيـدًا للملـك برنجار الأول الذى استولى على السلطة ودخل روما وتُوِّج ملكًا على إيطاليا فى عـام ٨٨٨م، ثـم تـوج إمبراطورًا من ٩١١ – ٩٢٤م، ولكن برنجار الثانى دخل فى صراعات مع بعـض الخصـوم للوصـول إلى عرش إيطاليا، وما لبث أن تهيأت أمامه الظروف بوفاة هيو البروفنسـالى ووريثـه لوثـر فـى عـام ٩٤٩م. عن ذلك انظر : قسطنطين بورفيروجنيتوس : المصدر السابق، ص٩٦–٨، راجع أيضًـا : ديفـز هــ.و. : أوربـا فـى العصـور الوسـطى، ترجمـة : عبـد الحميـد حمـدى، القـاهرة ١٩٥٨، ص٧٦ – ٨.

Ostrogorsky, G. Histoire de l'Etat Byzantin, trad. française de Gouillard, J., Paris, 1977, p. 316.

(٣) Ker, W.P., Loc. Cit.

(٤) هو قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogenitus أى المولود فى الغرفـة الأرجوانية، أنجبه الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ – ٩١٢م)، الملقب بـالحكيم Thewise مـن محظيتـه زوى كاربونسينا Zoe Carbonsina موصـى عليـه ثـم حكـم منفـردًا مـن ٩٤٥ – ٩٥٩م. انظر: جوزيف نسيم يوسف : تـاريخ الدولـة البيزنطيـة (٢٨٤ – ١٤٥٣م)، الإسـكندرية، ١٩٩٤م، ص١٥٢–٦١.

الثانى عشر John XII[1] (٩٥٥ – ٩٦٤م). والواضح أن ليوتبراند أدى مهامه تلك بكفاءة لفتت أنظار من حوله وأضافت إليه رصيدًا من الخبرة فى العمل الدبلوماسى.

ولما كانت كتابة التقرير قد غلب عليها طابع الكتابة الروائية، أصبح من الضرورى تقديم نبذة عن أدب ليوتبراند وأسلوبه فى الكتابة، وكان كير و.ب.، وهو أستاذ تخصص فى الشعر والأدب وله دراسات فى فترة العصور الوسطى، قد أفرد صفحات من دراسته للحديث عن ليوتبراند، ومما ذكره عنه : «إن طبيعة ليوتبراند أف كرمونا فى تناوله للأحداث التاريخية كانت متميزة... إذ لم تكن فترة العصور المظلمة كلها مظلمة لديه... فقد تمتع بعبقرية خاصة إلا أن الظروف التى مر بها لم تهيئ أمامه الفرصة بما يتفق مع قدراته... وبمقارنة ليوتبراند بأقرانه فلم يكن منهم من ينافسه فى دهائه». ومما يذكر أن الأستاذ كير تنبه إلى أن أخلاقيات ليوتبراند وسلوكياته وشخصيته غير المتسامحة انعكست بوضوح على كتاباته، وإجمالاً فإن أسلوبه كان بالغ الروعة بحيث تمخض عن نتاجٍ رائعٍ فى العصور الوسطى رغم الإفراط فى الخطابة والخلط، وقد برزت عبقريته فى قدرته الهجائية الناتجة عن الانفعال المتذبذب»[2].

ويهدف الباحث من بحثه هذا توضيح كثير من المعلومات الواردة فى تقرير هذا السفير وتبسيط المادة التاريخية وتحقيقها، خاصةً وأنه دأب فى عديد من المواضع على تسجيل ما كان يدور بخاطره و لم يستطع أن يتفوه به فعلاً أمام محاوريه فى قصر الإمبراطور البيزنطى. ومن الطبيعى أن نلتمس العذر للمبعوث نظرًا لما أحاط معلوماته من غموضٍ بالنسبة للقراء أو حتى لدارسى التاريخ، إذ

---

(١) أشار ليوتبراند فى تقريره فى أكثر من موضع إلى هذا البابا مسجلاً عدم رضاه عن بعض تصرفاته. تولى المنصب وهو فى الثامنة عشر من عمره، وكان اسمه أكتافيون Octavian التمس الحماية من أوتو الكبير بينما قام هو بتتويجه إمبراطورًا فى فبراير ٩٦٢م، ومن خلال علاقة التحالف تلك تمكن أوتو الكبير من السيطرة على الكنيسة الألمانية. انظر :

Tout., T.F., The Empire and The Papacy, London, 1909, Period II, p.p. 31 - 2.

(٢) Ker, W.P. Op. Cit., p.p. 183 - 5.

أنه اهتم فقط بمخاطبة سادته فى ألمانيا حين رفع إليهم هذا التقرير، وبالتالى لم يكن هناك ما يدعو السفير للإشارة إلى تفاصيل يعلمها الإمبراطوران، بيد أنها بقيت غير واضحة للآخرين، ومن ثم كان على الباحث أن يسهم فى تبيان زوايا التقرير المختلفة. ومن ناحيةٍ أخرى، عنى الباحث بإبراز المادة التاريخية رغم الطابع الأدبى الذى غلب عليها، وتحقيق بعض المعلومات التى كانت تفتقر إلى الدقة وتحتاج للتصحيح، ووضع بعض الأسماء فى موضعها كانت قد وردت فى النص متأخرًا، وربما كانت قد أغفلت، كذلك عنى بوضع عناوين للمواضيع والفقرات تصنيفًا لها وتيسيرًا على القارئ، وحرص على تسجيل أرقام صفحات النص الإنجليزى لمن يريد مضاهاته بما ورد فى الترجمة.

أما النهج الذى سيتبع فهو ذو اتجاهاتٍ أربعة : الاتجاه الأول ويتضمن موجزًا للأحداث السياسية والعسكرية التى خرجت السفارة خلالها وأحاطت بها، وذلك حتى يسهل فهم العديد من الجوانب الواردة فى التقرير. أما عن الاتجاهين الثانى والثالث فإنهما يسيران فى خطين متلازمين أولهما : عرض وترجمة لمادة التقرير المنشورة باللغة الإنجليزية، وثانيهما : توضيح بعض النقاط الغامضة وكذلك التعليق على ما ورد من مادةٍ تحتاج إلى تقويم أو تفسير، وذلك فى الحواشى. وانصب الاتجاه الأخير على وضع صورةٍ نقدية إجمالية للتقرير مبرزةً أهميته التاريخية ومقيمةً لها.

الظروف السياسية المحيطة بخروج السفارة :

شهدت فترة العصور الوسطى فى أوربا ألوانًا من العلاقات السياسية بغرض تخفيف حدة المعارك وسعيًا وراء السلام ولو لفتراتٍ يلتقط فيها الخصوم الأنفاس؛ ومن أشكال تلك العلاقات السياسية التحالفات، ومن صورها ما درج عليه الباحثون وأسموه بالزواج السياسى. ومن السوابق البارزة فى هذا المضمار حرص ملك القوط الشرقيين ثيودريك **Theodric** (٤٩٣ - ٥٢٦م) على الارتباط بالمصاهرات والنسب مع أكبر القوى البربرية فى عصره من الفرنجة وقوط الغربيين والبرجنديين والثورنجيين والوندال[1]. أما بالنسبة

[1] محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٩٨، ص١٠٠.

لموضوع البحث فتبرز أمامنا مشاريع عدة لإقامة زيجات سياسية تخفف من حدة الصراع بين المجتمعين الشرقى البيزنطى والغربى حيث الدولة الكارولنجية وتعالج ما فشلت فيه الكنيسة لرأب الصدع فيما بينهم، ولعل أشهرها حينما أرسلت إمبراطورة الدولة البيزنطية إيرين Irene (٧٩٧- ٨٠٢م) فى عام ٧٨٢م بسفارة إلى ملك الفرنجة شارلمان Charlemagne (٧٦٨- ٨١٤م) بغرض خطبة ابنته روترود Rotrude لابنها الإمبراطور قسطنطين السادس Constantine VI [١] (٧٨٠ - ٧٩٧م). وفى عام ٨٠٢م، أنفذ شارلمان سفارة لمقابلة إيرين عارضًا عليها الزواج بغرض توحيد الإمبراطوريتين ولقى العرض قبولاً لديها[٢]، بيد أن نقفور الأول Nicephorus I الذى خلفها على العرش (٨٠٢ - ٨١١م) اتخذ موقفًا عدائيًا و لم يعترف بشارلمان إمبراطورًا وبدأت الحرب السافرة بين الإمبراطوريتين فوق أراضى إيطاليا، و لم يصلا إلى سلام إلا بعد اعتراف القسطنطينية بشارلمان إمبراطورًا على الغرب فى عام ٨١٢م، فى حين أقر شارلمان بأحقية بيزنطة فى ملكيتها لأجزاء من جنوب إيطاليا. وظل الموقف فى المرحلة التالية بين الدولتين يمر بحالاتٍ متباينة بين الحرب والتوتر حتى وهنت إمبراطورية الفرنج بدايةً من أواسط القرن التاسع الميلادى.

وقبل تدوين ليوتبراند لتقريره بحوالى قرن من الزمن، عانت شبه الجزيرة الإيطالية من التمزق السياسى، وهذا هو شأنها فى العادة؛ إذ ظلت أجزاء منها خاضعة للعرش البيزنطى فى حين ظل الوجود الفرنجى فى أجزاء أخرى كبيرةٍ منها. وتمكن المسلمون من إقامة كياناتٍ لهم فى الجنوب وفى صقلية، ووصلوا بغاراتهم إلى جوف شبه الجزيرة[٣] لتبدأ قصة صراع طويل حول السيادة على

---

(١) Theophanes, The Chronicle of Anni Mundi 6095 - 6305 (A.D. 602 - 813), Eng. trans. with an introduction and nos. by Turtledove Harry, Pennsylvania, 1982, p. 141.

(٢) Bury, J.B., A History of The Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I (A.D. 802 - 867), London, 1912, p. 320.

(٣) Painter, Sidney, Mediaeval Society, Second Print, New York, 1953, p. 101.
قام المسلمون بمحاولتين لغزو روما (٨٥٢ - ٨٥٣م) وبلغوا بأسطولهم نهر التيبر Tiper غير أنهم لم يحققوا مرادهم وظلوا يتحينون الفرصة لإتمام هذه الخطوة. راجع : أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية، سركوز ١٣٦٥هـ، ص ٧٥-٦.

إيطاليا، وطبيعى أن تنضم البابوية إلى الجانب الفرنجى[١] . ونظرًا لأن السفارة قد اضطلعت بمهام دبلوماسية لها طابعها السياسى، كما أن السفير كان إيطاليًا لمبارديًا مثّل بلاطًا ألمانيًا فى عاصمة بيزنطة، فكان من الطبيعى أن يتضمن تقريره أحداثًا وإشاراتٍ ذات صلة بالأطراف السياسية المختلفة المتصارعة فوق الساحة الإيطالية.

على ذلك، يحسن في الفقرات الآتية تسليط بعض الضوء على الأطراف السياسية التى شكلت أركانًا أساسية فى تحريك الأحداث، وفيما يختص بالإمبراطورية البيزنطية هدف السفارة قُبيل خروجها ببضعة عقود، كان على الإمبراطور البيزنطى أن يرسل اثنين من النبلاء أحدهما يحكم صقلية وكلابريا (قلورية **Calabria**) ونابلى **Naples** وأمالفى **Amalfi**، أما الآخر فكان مقره بنفنتو **Benevento** ويحكم بافيا **Pavia** وكابوا **Capua** وبلاد أخرى مجاورة، وذلك مقابل أن يقوم هذان النبيلان بتقديم ما يحصلونه من أموال عن الولايتين إلى القسطنطينية عن كل عام[٢] . وترتب على ذلك أن أنشأ مؤسس الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٥٧م) بازيل الأول **Basil I** (٨٦٧ – ٨٨٦م) فى العام الأخير من حكمه ثيمى لونجوبارديا **Longobardia** وكلابريا واعترف عدد كبير من الأمراء اللمبارديين بالسلطة البيزنطية[٣] .

---

(١) Diehl, Charles, History of Byzantine Empire, trans. from French by George B. Ives, New York, 1945, p.p. 61-2.

كانت لبيزنطة ادعاءات تاريخية فى ملكية إيطاليا حتى بعد أن دانت للجرمان، ذلك أن مدنًا مثل رافنا وروما قد وصفتا فى القرن السادس بأن نصف سكانهما من اليونانيين.

انظر : لويس ر. أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة : أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم : محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٧٢ – ٣.

(٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس : المصدر السابق، ص٩٨–٩، انظر أيضًا :

Bury, J. B., Op. Cit., p.p. 308 - 11.

(٣) الحميرى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى / القرن الخامس عشر الميلادى) : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم : منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار خاصة بالجزر والبقاع الإيطالية، تحقيق امبرتو تيزيتانو، مجلة كلية الآداب، المجلد الثامن عشر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦م، ص١٥٣، Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 316.

وفى الوقت الذى حكم فيه الإمبراطورية البيزنطية أباطرة وقادة أقوياء انتموا للأسرة المقدونية، ورثت أسر حاكمة الإمبراطورية الكارولنجية فى الغرب، وفى ألمانيا ظهرت الأسرة السكسونية (٩١٩ - ١٠٢٤م) وبرز من بين حكامها الإمبراطور أوتو الكبير الذى أولى إيطاليا اهتمامًا واضحًا؛ إذ سعى إلى ضمها لسيطرته. ولما كان اللمبارد[1] لهم نفوذهم القوى فى المقاطعات الشمالية والوسطى، فقد كانت الخطوة الأولى للإمبراطور هى ضرورة القضاء على ذلك النفوذ، فقام بإقصاء برنجار الثانى وابنه أدلبرت **Adelbert** عن عرش إيطاليا فى عام ٩٥١م، وضم ممتلكاتهم إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى قام بإحيائها وتوّج نفسه إمبراطورًا على روما فى العام التالى، وتولى بنفسه اختيار البابا الذى يمكن بمساعدته تنفيذ مشروعاته التوسعية ووقع الاختيار بالفعل على البابا ليو الثامن **Leo VIII** (٩٦٣- ٩٦٥م)[2]، وبذلك نجح أوتو الكبير فى أن يقطع شوطًا طويلاً على سبيل توحيد إيطاليا فى ظل سيادته الإمبراطورية.

---

(١) فى عام ٥٦٨م، تدفق اللمبارديون على إيطاليا من أواسط الدانوب، وفى أعوام قليلة، سادوا شمال إيطاليا حيث إقليم لمبارديا حاملاً اسمهم حتى الآن وتمكن اللمبارديون خلال ثلاثة أرباع قرن من التأكيد على سلطانهم على حساب النفوذ البيزنطى؛ حيث انطلقوا من عاصمتهم بافيا ليتوسعوا فى كثير من الأقاليم المجاورة، ولقد أظهر اللمبارديون قدرةً على حكم شعبٍ مقهور، فاستعملوا اللغة اللاتينية وتحولوا من الأريوسية إلى الكاثوليكية. وقد تناولت مراجع عدة هؤلاء القوم وثقافتهم ومدى تأثرهم بالحضارة الرومانية. راجع منها :

Christie Neil, Op. Cit., Bassim

موس هـ. و. : ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ - ٨١٤، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة : السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٦٧م، ص١١٦، ٣٣١ - ٢.

(٢) Tout, T.F., Op. Cit., period II, p.p. 30 - 5.

ترأس الإمبراطور أوتو الكبير مجمع روما الدينى الذى انعقد فى الرابع من ديسمبر ٩٦٣م، ووقع الاختيار فيه على ليو ليتولى العرش البابوى بعد إقصاء يوحنا الثانى عشر بسبب تحالفه مع أعداء الإمبراطور. ونظرًا لأن ليو لم يكن برجل الكهنوت الجدير بالمنصب وبسبب الثورة العارمة التى نشبت ضده، اعتُبِر مغتصبًا للمنصب، وتم إقصاؤه عنه فى عام ٩٦٥م.

انظر : Kelly, J. N. D., The Oxfod Dictionary of Popes, 1996, p.p. 127-8.

وبعد أن ثبت أوتو الكبير أقدامه في شمال إيطاليا، اتجه إلى أواسطها والجنوب، فكان من الطبيعي أن يصطدم بالدولة البيزنطية التي كانت تعتبر منذ عصر بازيل الأول كلاً من بنفنتو وكابوا من المقاطعات التابعة للإمبراطورية، وأخذت تباعًا تدفع بالعون والمساعدات إليهما[1]، في حين ذهب الإمبراطور الألماني إلى أبعد من ذلك بأن استولى على مقاطعة أبوليا **Apulia**، كما فرض الحصار على مدينة باري **Bari** في إقليم كلابريا في جنوب إيطاليا الخاضع للبيزنطيين، ولكنه فشل في هجومه، كما فشل أيضًا في الحصول من القسطنطينية على اعتراف بلقبه الإمبراطوري[2]. وأخيرًا وصل الإمبراطور إلى أنه بالإمكان الوصول إلى نتائج أفضل ومزيد من الأراضي باللجوء إلى المفاوضات بدلاً من الحرب[3].

وفي الواقع، فلقد لعب ليوتبراند دورًا مهمًا في إقناع أوتو الكبير بالسلام، واقترح عليه تزويج ابنه أوتو الثاني، شريكه في الحكم، من أميرة بيزنطية، وانتهى الأمر بأن اقترنت فكرة الزواج بالأميرة ثيوفانو **Theophano** إحدى ابنتي الإمبراطور رومانوس الثاني من زوجته ثيوفانو الجميلة الجذابة. وكان نقفور الثاني قد تولى الوصاية على الابنة بعد أن حظي بالزواج من أمها، الأمر الذي يسر له حمل اللقب الإمبراطوري[4]. وكان العرض يتضمن أن يقوم نقفور بتقديم مقاطعتي أبوليا وكلابريا في جنوب إيطاليا بائنةً لزواجها[5]، وذلك وفقًا للتقاليد المعروفة منذ القدم عن أهل اليونان التي تقضي بأن تقدم العروس صداقًا لعريسها عند الزواج.

---

(1) قسطنطين بورفيروجنيتوس : المصدر السابق، ص١١٣.

(2) هسي ج.م. : العالم البيزنطي، ترجمة : رأفت عبد الحميد، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٤م، ص١٥٤.

(3) Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 316.

(4) اهتمت إحدى الدراسات بالتعرض إلى شخصية ثيوفانو الأم وقصة زواجها من نقفور وبدورها السياسي. يمكن مراجعتها في :

Diehl, Charles, Figures Byzantines, p.p. 217 - 43.

(5) السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م)، بيروت ١٩٨٢م، ص٤٩٩.

ويخبرنا ليوتبراند فى تقريره بأن سفارة ألمانية أخرى كانت قد سبقته إلى القسطنطينية بوقتٍ قصيرٍ بغرض عقد تسوية الخلافات السياسية التى ترتبت على الوضع العسكرى المتفاقم بين الإمبراطورية الألمانية والبيزنطية فى إيطاليا. وورد فى التقرير أن رئيس تلك السفارة كان إيطاليًا أيضًا من البندقية، ويدعى ديمونيكوس البندقى **Dimonicos the Venetian** بيد أن الشواهد تؤكد فشل جهود هذا السفير، بدليل اتجاه الإمبراطور أوتو الأول إلى إنفاذ سفارة ليوتبراند. وكان ليوتبراند قد ارتقى إلى منصب أسقف كنيسة كرمونا وأهَّله هذا المنصب الدينى المرموق إضافةً إلى خبرته العريضة فى العمل الدبلوماسى ليكون موضع اختيار الإمبراطور الألمانى للاضطلاع بمهمةٍ جديدة إضافية بالنسبة له، فلم يتردد فى إرساله مرة أخرى فى هذه السفارة موضع الدراسة، خاصةً وأنه صاحب فكرة التوفيق بين الإمبراطوريتين المسيحيتين فى شرق أوربا وغربها بتزويج ثيوفانو من أوتو الثانى. وكان من الطبيعى أن يتحرك ليوتبراند من ألمانيا وسط حاشية فى طريقه إلى القسطنطينية ذكر عددها بخمسة وعشرين رجلاً. ولندعه هو نفسه يروى الكيفية التى استقبل بها فى القسطنطينية، والمناقشات التى دارت والمواقف التى واجهها وباقى أحداث السفارة.

عرض لنص التقرير والتعليق عليه

افتتاحية :

(ص٤٤١) إن ليوتبراند أسقف كرمونا المقدسة يرجو ويصلي لله داعيًا إياه لآل أوتو –الأباطرة الرومان[1] الذين لا يقهرون– وكذلك أدليد[2] Adelaide المجيدة بالازدهار والرقي والانتصار.

وما لبث أن بدأ ليوتبراند تقريره على النحو الآتي :

(ص٤٤٢) لماذا لم تتلقيا رسائلي السابقة ولم تستقبلا مبعوثي على كلٍ فما سيأتي سوف يفسر ذلك[3].

---

(1) يُلاحَظ هنا استخدام ليوتبراند لقب أباطرة الرومان تعبيرًا منه عن أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذين يحكمون ألمانيا بالذات، حيث انتخب كونراد الأول Conorad I أمير فرانكونيا Franconia ملكًا، وبوفاته اختير هنرى الصياد Henry the Fowler ليخلفه (٩١٩ – ٩٣٦م)، ويرجع له الفضل فى توحيد كلمة الأمراء وتكوين حكومة مركزية تقوم على العنصر السكسونى، وتبعه فى سياسته ابنه أوتو مدعومًا بالكنيسة، ولمعرفة المزيد راجع :

Schmeidler, Bernhard, Franconia's Place in the Structure of Mediaeval Germany, ed. and trans. from Germany by Barradough-Geoffrey in Mediaevel Germany 911 - 1250, Essays. Oxford, 1948, second edition, vol. II, p.p. 80 - 3.

(2) تدعى أدليد وأيضًا أدليسا Adelesa ابنة رودولف Rodolf الذى حكم إيطاليا منذ عام ٩١١ وانتزعها منه هيو البروفنسالى فى عام ٩٢٥م، وعند وفاة رودولف (٩٣٧م) تزوج هيو من أرملته برتا Bertha كما زوّج ابنتها أدليد هذه إلى ابنه لوثير، فصارت ملكة على إيطاليا بعد وفاة زوجها (٩٤٩م)، وما لبثت أن تزوجت من أوتو الكبير فى العام التالى، فحملت اللقب الإمبراطورى بحمله له، عام ٩٦٢م، وكانت قد أنجبت منه أوتو الثانى، ومن ثم فهى زوجة لإمبراطور وأم لإمبراطور. راجع : قسطنطين بورفيروجنيتوس : المصدر السابق، ص٩٦ – ٨.

Tout, T.F., Op. Cit., period II, p.p. 28 - 9.

(3) يبدو أن الخطاب هنا موجه من ليوتبراند إلى سيديه الإمبراطورين أوتو الكبير وأوتو الثانى بعد أن تأخر عن العودة من القسطنطينية.

الوصول إلى القسطنطينية :

وفى اليوم الرابع من يونية، وهو اليوم قبل يوم النون Nones[1] جئنا إلى القسطنطينية حيث تم استقبالنا بشكل سيء ومخزٍ كما تم التعامل معنا بفظاظةٍ ووقاحةٍ، وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على عدم احترامكم لأنفسكم[٢]. فقد أُغلق علينا القصر رغم اتساعه حقًا، إلا أنه لم يكن مسقوفًا، وعليه لم نجد ما يحمينا من البرد ويقينا الحر. وقام الجنود الذين يتولون حراستنا بمنع رفاقى من الخروج، وكذلك منعوا مَن عداهم مِن الدخول إلينا. وكان البيت الوحيد الذى يُسمَح لنا بالسير إليه يقع على مسافة بعيدة جدًا من القصر، حتى إننا نكاد نلفظ أنفاسنا حين نذهب إلى هناك، ولم نجد ما يمكننا ركوبه. [وأضاف متهكمًا] وقد زاد الطين بلة أن الخمور اليونانية المقدمة كانت مخلوطةً بالقار وبمادةٍ لزجةٍ أخرى، علاوة على مادة الجبس، ومن ثم كان من المستحيل شربها. وفى البيت لم نجد الماء لنروى ظمأنا، حتى أنه لم يكن فى استطاعتنا شراؤه بالمال. وفوق هذا العذاب، زادنا عذاب آخر -ذلك هو الحارس المسئول عن إمدادنا باحتياجاتنا اليومية. فإذا ما أراد شخصٌ ما البحث عن شبيهٍ له على البسيطة، وربما فى جهنم فلن يجد. ذلك أنه صب علينا جام غضبه كالطوفان الجارف، وكل ما استطاع عمله فينا من نوائبٍ ونهبٍ وتطرف وتعذيب وتعاسة، وهكذا لم يمر يوم واحد من مدة المائة والعشرين يومًا[٣] منذ وصولنا إلا وجلب لنا ألوان الحزن والأسى[٤].

---

(١) هو اليوم الخامس من أى شهر من السنة وفقًا للتقويم الرومانى القديم، وذلك عدا أشهر مارس ويوليو وأكتوبر، ومن ثم فتاريخ وصول السفارة فى الرابع من يونيو ٩٦٨م.

(٢) الإشارة هنا إلى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية.

(٣) وهذه المدة استغرقت فصل الصيف بأكمله وبعضًا من فصل الخريف.

(٤) المعاملة التى لقيها ليوتبراند ورفقاؤه وفقًا لما صوره لنا تخرج تمامًا عن المألوف فى معاملة السفارات فى-

وفى الرابع من يونيو وهو اليوم السابق على يوم النون (ص٤٤٣)- كما ذكر سالفًا- وصلنا إلى القسطنطينية، وهناك انتظرنا خارج بوابة كارين Carian[1] وخيولنا معنا حتى الساعة الحادية عشر وسط مطرٍ منهمر. ولكن عند الساعة الحادية عشر تمامًا، فإن نقفور الذى لم يكن يعيرنا انتباهًا بينما كان ممتطيًا جواده فى أُبَّهةِ ميزته، أمرنا بالاقتراب منه، وتم اقتيادنا إلى ذلك المكان الكئيب، وهو البيت الرخامى المكشوف الذى لا يوجد به ماء كما ذكر سالفًا. ولكن فى اليوم الثامن قبل العَيْدَس Ides[3] [السادس من يونيو] وهو الموافق يوم السبت السابق على عيد العنصرة Pentecost[4]، تم اقتيادى إلى حضرة أخيه ليو Leo[5] رئيس حرس هذا البلاط ومستشاره؛

ذلك الوقت، بل ضاهت معاملة الأسرى فى الإساءة. وللتعرف على جانب من القواعد الدبلوماسية البيزنطية ومعاملة المبعوثين والسفراء، راجع على سبيل المثال : رنسمان س. : الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه : زكى على، القاهرة ١٩٦١، ص٢١٠ - ١٦.

(١) لعلها البوابة التى أشار إليها المؤرخ ثيوفانوس Theophanes برسم خاريسين Charisian غير مرة، وكانت تقع بالقرب من القصر الإمبراطورى، فاعتاد الأباطرة على استقبال قادتهم العسكريين والجند وإقامة الاحتفالات معهم عندها. راجع :

Theophanes, Op. Cit., p. 71 - 181.

(٣) العَيْدَس : هو اليوم الخامس عشر من آذار أو نوار أو تموز أو تشرين الأول، أو اليوم الثالث عشر من أى شهر آخر فى التقويم الرومانى القديم. وتوسعًا : هذا اليوم والأيام السبعة التى تسبقه.

Simpson, D.P.,Cassell's New Latin Dictionary, Latin-English, English-Latin, London, 1959, p. 284.

(٤) عيد الخمسين أو العنصرة عند النصارى، أو عيد الحصاد عند اليهود؛ ذلك أن الكنيسة اعترفت بهذا اليوم عيدًا وحفظته ضمن أعيادها، ففيه حلت الروح القدس حين اجتمع الأهالى فى مدينة القدس على الحواريين للاحتفال بحصادهم، بينما يقول التقليد اليهودى إن الناموس أُعطى فى اليوم الخمسين بعد خروجهم من مصر ولذا حفظوه عيدًا لهم إحياءً للذكرى أكثر مما يحفظونه عيدًا لجمع الحصاد. راجع : بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، (د.ت)، مادة : خمسون.

(٥) يعتبر برداس فوقاس Bardas Phocas أحد القادة العسكريين البارزين الذين لمعت أسماؤهم على الجبهة الشرقية للدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى وخلف من ورائه ثلاثة أبناء أخذوا الشهرة ذاتها-

وهناك أصابنا الإرهاق من جراء المناقشات الحامية معه حول حملك[1] للقب الإمبراطورى، فهو لم يدعك إمبراطورًا التى تعنى باسيلوس Basileus[2] فى لغته، وإنما قصد إهانتك بأن لقبك بلقب ركس Rex التى تعنى ملكًا King فى لغتنا[3] . وعندما أبلغته بأن الأمر المشار إليه واحد بالرغم من اختلاف المصطلحين اللذين استخدمهما فى التعبير، رد قائلاً : إننى لم آتِ كى أعقد سلامًا وإنما لأعمِّق الخلاف، ومن ثم فقد هبَّ واقفًا فى غضبٍ وتسلم

= وذاع صيتهم خلال القرن العاشر الميلادى؛ وكان نقفور أول هؤلاء الأبناء وتلاه كل من ليو ثم قسطنطين. وقد أهَّل تاريخ ليو العسكرى تلك الشخصية لاعتلاء أعلى المناصب بالقصر الإمبراطورى فى عهد أخيه نقفور. راجع :

Psellus, Michael, The Chronographia of Michael Psellus, trans. from the Greek by E.R.A. Sewter, London, 1953, p.p. 5, 7, 9; Diehl, Charles, History of the Byzantine Empire, p. 78.

[1] ليوتبراند يوجه حديثه إلى سيده أوتو.

[2] تم تصنيف الإمبراطور الرومانى وظيفيًا على أنه باسيلوس بوصفه شخصية مرموقة للغاية، وهو بذلك يعد وريثًا للقب الرومانى قيصر Caesar، ومن ثم كان عليه أن يكون على رأس الجيش، كما أنه لسان حال القانون؛ ونتيجة للاحتكاك بالشرق ونظمه الإدارية، غدا باسيلوس السيد الأعلى الذى بيده جميع السلطة، كما نافس الأباطرة وسلالة الملوك العظام، وأكسبته المسيحية قداسةً ووضعًا متميزًا.

.Diehl, Charles, History of the Byzantine Empire, p. p. 90 - 1.

وقد درج بعض المؤرخين على الإشارة إلى الأباطرة، بدايةً من هرقل Heraclius (٦١٠ – ٦٤١م) وقد حملوا لقب باسيلوس. انظر : أسد رستم : الروم، ج١–٢، بيروت ١٩٥٥ – ١٩٥٦، صفحات متفرقة.

[3] دار جدل حول اللقب الإمبراطورى وقد شاع فيما بين الإمبراطوريين المتنافستين : الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وسبب ذلك أنه من الناحية النظرية ارتكزت فكرة الإمبراطورية على ما للإمبراطورية من وحدةٍ، ومع ذلك فثمة إمبراطوريتان فعلاً، تزعم كل منهما أنها وريثة روما. انظر :

Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 316

وتوجد دراسة وافية عن جذور هذا الخلاف حول حمل اللقب يمكن مراجعتها فى :

Fichtenau, Heinrich, The Carolingian Empire, Trans. by Munz, Peter, Oxford, 1957, p.p. 47, 79.

رسائلك بطريقةٍ مهينةٍ حقًا، ولم يكن ذلك عن طريق رجاله وإنما عن طريق [إينوديسيوس Enodisius][1] الترجمان. وفى الواقع، فقد كان [ليو] رجلاً ذا شخصيةٍ متسلطةٍ، غير أنه كان يتظاهر بالتواضع؛ فطالما الشخص الذى أمامه ضعيفًا فيمكنه السيطرة عليه بل واختراقه.

لقاء ليوتبراند بالإمبراطور نقفور الثانى ووصفه له :

وفى اليوم السابع قبل العَيْدَس [السابع من يونية]، بل والأدهى من ذلك ففى عيد العنصرة، ذلك اليوم المقدس، تم اقتيادى إلى أن أصبحت بين يدى نقفور فى ذلك القصر الذى يسمى قصر التاج[2]، وكان نقفور رجلاً فظيع الشكل، قصير القامة، ذا رأسٍ متضخمة، ويشبه حيوان الخُلْد فى ضيق عينيه[3]، ويثير الاشمئزاز بلحيته القصيرة والعريضة والكثيفة والتى شاب

---

(١) ورد هذا الاسم فى موضع لاحق من النص.

(٢) كان القصر الإمبراطورى الذى سكنه الأباطرة المقدونيون يعرف باسم القصر المقدس Le Palais Sacré ويذكر أن الإمبراطور بازيل الأول Basil I (٨٦٧ - ٨٨٦م) مؤسس الأسرة قد شيد مسكنًا خاصًا به يدعى سينورجيون Cénourgion، بيد أن نقفور الثانى أراد أن يميز عصره بأن أقدم على تجديد قصر بوكوليون Boucoléon المهجور منذ القرن الخامس الميلادى، وزاد من مساحته وحجمه إلى حدٍ كبير وجعل منه قلعةً وسكنًا. ولم يكن قصر بوكوليون بأقل بهاءً وزينةً من قصر سينورجيون. انظر :
Bailly, Auguste, Byzance, Paris, 1939, p.p. 295 - 7
ولنا أن نعرف أن أعمال الإمبراطور داخل القصر كانت تخضع فى توجيهها لطقوس البلاط الصارمة؛ إذ كان محاطًا بهيئة موظفين ضخمة تعاونه بموجب لائحة من الطقوس كانت جزءًا من سياسة الحكومة البيزنطية وعكست هذه الطقوس النفوذ الإمبراطورى بمظهره المزدوج : السياسى والدينى. انظر :
Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 271.

(٣) هو حيوان ورد ذكره فى المعاجم على أنه نوع من الفئران بيد أنها عمياء لم يخلق لها عيون، كما أنها صماء، وفى ذلك تقبيح لهيئة الإمبراطور نقفور بما فيه الكفاية. راجع المزيد عنه فى : الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، (أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ): كتاب الحيوان، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، ٨ ج، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م، ج٢، ص ١١٢، ج٤، ص٤١٠، ج٥،=

نصف شعرها؛ وزادته رقبته قبحًا إذ أنها لا تزيد عن البوصة طولاً، وكان شعره في غاية الخشونة لطوله وغزارته؛ ويشبه الرجل الحبشي في بشرته[1]، وكان يخيف من يلمحه في الليل؛ وكان ذا بطنٍ كبيرةٍ متدليةٍ وخصرٍ نحيلٍ، كما كان لديه فخذٌ طويلٌ لا ينسجم مع قصر قامته، أما ساقه فهي قصيرة تتناسب مع الكعبين والقدمين؛ وكان مرتديًا عباءة غالية الثمن ولكنها كانت عتيقة عفى عليها الدهر ينبعث منها روائح كريهة؛ كما ينتعل نعلاً يتصف بالنعومة اشتهرت بصناعته مدينة سيكيون Sicyon[2]، وكان سليط اللسان، كالثعلب في طبعه، حانث في يمينه، كذابٌ أشِر [مثل] أُليسيس Ulysses[3]. وحقيقة، دائمًا ما كنت أعتبر سيديَّ وإمبراطوريَّ حسني الخلقة، فقياسًا على هذا الرجل يبدوان لي الآن أكثر بهاءً ! والذين اعتقدت أن أراهم عظامًا، فهم في عيني الآن أكثر عظمةٍ ! وكل الذين عرفت فيهم أنهم أقوياء، فإنهم الآن أكثر قوة ! وكذلك كل الذين آنست فيهم الكرم، فهم الآن أكثر كرمًا ! أما الذين كنت أظن أنهم فضلاء، فإن فضلهم اليوم في نظري لا يُحَد.

= ص٢٦٠، ج٦، ص٤١١، راجع أيضًا : ابن منظور (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م – ٧١١ هـ / ١٣١١م)، (كمال الدين أبو الفضل حبقة بن منظور) : لسان العرب، القاهرة، د.ت.، ج٢، مادة خلد.

[1] استند المؤرخون الحديثون في وصفهم لشخصية نقفور بشكل أساسي على وصف ليوتبراند له، ومما يضاف أن نقفور كان في السادسة والخمسين من عمره في ذلك الوقت، أما تشبيهه بالرجل الحبشي ففيه إشارة إلى ما يميزه من بشرة سمراء داكنة. راجع :

Diehl, Charles, Figures Byzantines, p. 227.

[2] المدينة تقع في شمال شرق البلوبونيز (المورة) Peloponnesus

Simpson, D. P., Op. Cit., p.553.

[3] كان ملكًا على جزيرة إيساكا Ithaca الواقعة في البحر الأيوني Ionian Sea اشتهر بالضلال والمراوغة.

Ibid, p. 613.

جلسة مباحثات حامية الوطيس :

(ص٤٤٤) ثم اتخذ اثنان من صغار السن من البيت الإمبراطوري مقعديهما إلى اليسار من نقفور ولكن ليس على المستوى نفسه، وكان هذان الشخصان من معلميه [وبالأحرى من سادته] ثم أصبحا الآن من رعاياه المقطعين[١]. وما لبث أن بدأ حديثه إليَّ قائلاً : «كان من اللائق علينا، بل نتمنى أن نستقبلكم بكرمٍ وشرف؛ ولكن صلافة سيدكم[٢] لم تسمح لنا بذلك إذ تصرف تصرفًا عدائيًا حيالنا بأن غزا روما وادعى ملكيتها لنفسه؛ وبدون حق ولا شرعية استولى على مملكة برنجار[٣] وأدلبرت Adalbert[٤] ؛

---

[١] كان هذان الطفلان في حقيقة الأمر هما : بازيل وقسطنطين ابني الإمبراطور رومانوس الثاني، ويُفهم من الصورة التي رسمها ليوتبراند لهما في هذا الاحتفال أنهما جلسا على مسافةٍ ما في الخلف على مقاعد أقل ارتفاعًا في حين جلس نقفور وحده على العرش، ويفهم أيضًا أنه في سابق الأمر عقب توليه العرش، كان الطفلان يتواجدان في الصف الأول. ومن ثم، تمكن صاحب التقرير من تقديم صورة حية تعكس مدى هيمنة نقفور على السلطة والعرش الإمبراطوري في بيزنطة وقت السفارة.

[٢] المقصود أوتو الكبير.

[٣] تعود هذه الأحداث إلى سبعة عشر عامًا مضت، ذلك أن برنجار الثاني كان قد ذهب قبل أن يتولى الحكم في إيطاليا إلى بلاط سكسونيا حيث الإمبراطور أوتو الكبير وأعلن ولاءه له واكتسبت العلاقة بينهما أهمية سياسية أكبر في عام ٩٥٠م، حينما تهيأت الظروف أمام برنجار لتولي حكم إيطاليا، ولكنه ما لبث أن تمرد على أوتو ونبذ يمين الولاء فأعلن الإمبراطور الحرب عليه واستولى على مدينة روما منه في عام ٩٥١م، وصار أوتو ملكًا على إيطاليا حتى عام ٩٦١م، بينما استمر برنجار مجرد مقطع له حتى توفي في ذلك العام. انظر :

Tout, T. F., Op. Cit., period II, p.p. 28 - 30

ديفز هـ . و. : المرجع السابق، ص٧٧.

[٤] هناك شخصان يحملان الاسم ذاته أدلبرت وينطبق عليهما الحديث أعلاه وهما : أدلبرت بن لوثير الثاني Lothair II الذي حكم مملكة إيطاليا (روما وما حولها) من ٨٥٥ حتى ٨٦٩م بصفته أحد أحفاد الإمبراطور شارلمان، وبسبب النزاع مع الأقارب خرجت إيطاليا عن يد أدلبرت، غير أن ابنه برنجار الأول تمكن أن يصبح ملكًا على إيطاليا ٨٨٨م، ثم توج إمبراطورًا ٩١١ - ٩٢٤م. راجع :-

كما أعمل السيف فى بعض الرجال الرومان وقتلهم، وأعدم آخرين شنقًا، وسمل أعين البعض منهم، وقام بنفى البعض الآخر إلى المنفى؛ والأدهى من ذلك أنه حاول أن يخضع مدنًا تابعة لإمبراطوريتنا بعد إحراقها وذبح أهلها. ونظرًا لأن مآرب سيدك لم تصل منتهاها، فقد أرسلك إلينا مستفزًا لنا، بل تمادى فى غيه بأن جعلك تقوم بدور الجاسوس علينا فى ثوب المطالب بالسلام».

حينئذ رددت عليه : «لم يستولِ سيدى على مدينة روما ظلمًا وعدوانًا؛ ولكنه حررها من نير الطغيان، بل من عبودية الطغاة[1]. ألم يحكمها عبيد النساء سالفًا؛ بل والأكثر عارًا ألم تحكمها النساء العاهرات؟[2]. إنى أظن أن سلطانك وسلطان أسلافك المزيف، الذين لم ينالوا

= سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى (التاريخ السياسى) الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٧٤، أما أدلبرت الآخر فهو ابن برنجار الثانى الذى فقد عرش روما بوفاة أبيه ٩٦١م وتضييق الخناق عليه من قِبل أوتو الكبير، انظر :

Schlumberger, G., Un Empereur Byzantin au Dixième Siècle Nicéphore Phocas, Paris, 1890, p. 348.

(١) غزا أوتو الكبير مدينة روما عدة مرات فانتزعها فى عام ٩٥١م متذرعًا بسببين : الأول هو رغبته فى القضاء على ملكها برنجار الذى تمرد عليه حينما دانت له بالولاء فى العام السابق، والثانى هو تمادى برنجار فى إساءة معاملة وريثة العرش الإيطالى أدلين، فتزوجها أوتو الذى عاود مهاجمة روما ٩٦١ و٩٦٦م خلال سياسته لفرض نفوذه على البابوية. راجع : ديفز هـ. و. : المرجع السابق، ص٧٦- ٨،

Tout, T.F., Op. Cit., period II, p.p. 30, 34 - 5.

(٢) أشارت إحدى الدراسات المتخصصة إلى ظروف إيطاليا السياسية فى تلك الحقبة. ويتبين من هذه الدراسة أن المقصود بعبيد النساء هم عصبة من النبلاء الرومان المتصفون بالجشع والفساد حتى أنهم تحكموا فى الانتخابات، فتدخلوا فى اختيار الذين اعتلوا كرسى البابوية وسيطروا عليهم لدرجة أنهم ولمدة جيلٍ كاملٍ أصبحوا لا حول لهم ولا قوة، أما النساء المتصفات بالعاهرات فكن من الطبقة ذاتها، وبرزت منهن ثيودورا Theodora وبنتيها : ماروزيا Marozia زوجة المركيز ألبريك الأول سيد كاميرنو Alberic of Camerino، وكذلك ثيودورا الصغيرة. وأشارت بعض المراجع التى أرخت

من حظ الأباطرة الرومان إلا لقبهم الذى تقلص منكم بعد الاستيلاء على هذه البلاد. فإذا ما كانوا [أباطرة الرومان] أقوياء حقًا فلماذا سمحوا بترك حكم روما فى أيدى نساءٍ عاهرات ؟ ألم يتعرض معظم الباباوات المقدسين فيها للنفى، ألم يكن البعض الآخر منهم مظلومين إلى الحد الذى لم يصبح فى مقدورهم الحصول على احتياجاتهم اليومية ولا أية موارد مالية حتى التى تأتى من الصدقات ؟[1] ألم يرسل أدلبرت برسائل مفعمة بالازدراء إلى كلٍ من الإمبراطورين : رومانوس Romanus [2] وقسطنطين اللذين توليا العرش من قبلك ؟ ألم يقم باقتحام كنائس الرُسُل الأكثر قدسية وسلب ما فيها ؟ إن أحدًا منكم أيها الأباطرة لم تأخذه النخوة من أجل الانتقام من هذه الجريمة

للكنيسة والباباوات إلى تعدد أزواج الأميرة ماروزيا من النبلاء، وأعد كثير من رجال الكنيسة زواجها الثالث من هيو البروفنسالى زواجًا غير شرعى. انظر :

Tout, T. F., Op. Cit., period II, p.p. 29 - 30, Cf. also, Kelly, J.N.D., Op. Cit., p. 123.

(1) أقر ليوتبراند هنا حقيقة انتهاء نفوذ بيزنطة وسلطانها على البابوية فى روما. وحدد المؤرخون الحديثون ذلك بأواسط القرن الثامن الميلادى؛ أما منذ أوائل القرن العاشر الميلادى، فقد تعاقب على كرسى البابوية سلسلة من الباباوات الضعاف غير الكفاة، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشينة دبرها نبلاء روما العابثين، ومن ذلك أن يوحنا العاشر John X (٩١٤ - ٩٢٨م) كان قد قُتل خنقًا، أما ستيفن الثامن Stephen VIII (٩٣٩-٩٤٢م). فقد أودع السجن، وعُذّب فيه وبُترت أعضاء من جسمه حتى توفى متأثرًا بجراحه، وظل وضع البابوية متردّيًا إلى أن استولى أوتو الكبير على روما بدعوة من البابا يوحنا الثانى عشر. راجع على سبيل المثال: سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ج١، ص١٧٤.

Kelly, J.N.D., Op. Cit. p.p. 121 - 2, 124.

(2) إذا ما سلمنا بأن أدلبرت المشار إليه أعلاه هو ابن برنجار الثانى، يصبح الإمبراطور رومانوس هو رومانوس الثانى الذى عاصره وتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية من ٩٥٩ إلى ٩٦٣م، وابن قسطنطين السابع، وكان من الطبيعى أن يتغير موقف أدلبرت من بيزنطة بعد إعلان التبعية للإمبراطور أوتو الكبير مع أبيه برنجار فى عام ٩٥١م، عندما أخضع أوتو روما. راجع:

Runciman, S., Op.Cit., p.p. 195-6.

البشعة ولم يفكر فى إعادة الكنيسة المقدسة إلى وضعها اللائق بها، فبينما أنتم أهملتموها فإن سيدى لم يهملها، ذلك أنه جاء من أقصى الأرض [حيث سكسونيا] إلى روما وأزال أولئك العاقين، وأعاد لقساوسة كنيسة الرسل المقدسين Church of the Holy Apostles سلطانهم[1] وكل ما كان لهم من هيبةٍ وشرفٍ. ولكن الذين عارضوه ووقفوا فى سبيله وفى سبيل قداسة البابا الذى اكتسب شرعيته من مراسيم الأباطرة جستنيان Justinian[2] وفالنتنيان Valentinian[3] وثيودوسيوس Theodosius [4] وآخرين

---

[1] هى كنيسة القديس بطرس الشهيرة فى روما التى تضم الكرسى البابوى، وحينما قدم أوتو الكبير إلى روما ٩٦٢م، وأراد أن يسيطر على البابوية بأن طالب البابا يوحنا الثانى عشر بأن يقسم يمين الولاء له بصفته إمبراطورًا؛ رفض البابا ذلك وفر هاربًا، ثم عاد، واستمرت محاولات أوتو للتدخل فى شئون البابوية فى المرحلة التالية. راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ج١، ص٣٠٥.

[2] هو جستنيان الأول، حكم الإمبراطورية الرومانية بعد أن سعى إلى توحيدها ٥٢٧ – ٥٦٥م. كان مشرعًا وإداريًا ورجل دين ومؤسسًا لأجهزة الدولة، وتشعبت سياسته فى ميادين الأعمال الداخلية والخارجية المختلفة، وإن كانت سياسته الخارجية أهم ما فى حكمه، ويلاحظ اهتمامه بصبغ تشريعاته بالصبغة الرومانية للإمبراطورية فى شكلها القديم. راجع : السيد الباز العرينى : المرجع السابق، ص١٧٠-٣.

[3] كان شقيقًا للإمبراطور البيزنطى فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨م)، وقد قام فالنتنيان الأول بإدارة القسم الغربى من الإمبراطورية الذى كان من نصيبه حيث دخلت روما فى دائرة اختصاصه، ومما يذكر عنه أنه برز قائدًا عسكريًا وكان من أعظم قواد عصره. انظر : أومان شارلز : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة : مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م، ص٢٩، ١١٤.

[4] يُظَن أنه الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الكبير الذى حكم الإمبراطورية الرومانية شرقيها وغربيها موحدة ٣٧٩ – ٣٩٥م، وكان قد حكم منفردًا بدايةً من عام ٣٩٢م، أما حفيده ثيودوسيوس الثانى، فقد حكم الجزء الشرقى فقط من الإمبراطورية، حيث الدولة البيزنطية (٤٠٨– ٤٥٠م)، ومن ثم يرجح الباحث أن ليوتبراند يشير فى هذا الموضع إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الأول لعظم قدره ولامتداد سلطانه على روما وبابويتها ولاهتمامه بشئون الكنيسة، حتى بدا كأنه المسئول الأول عن شئونها. ولمعرفة المزيد عن هذين الإمبراطورين راجع على سبيل المثال : حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م، ص٤١ – ٥٢.

غيرهم، فإنه أعمل فيهم السيف وخنقهم وشنقهم وقام بنفيهم جزاء أنهم حنثوا بالقسم الذى قطعوه وبما اقترفوه من تدنيسٍ للمقدسات وتعذيبٍ ونهبٍ لآبائهم البابوات. وفي الواقع فإن لم يقدم سيدى على فعل ذلك فإنه هو الذى يصبح العاق حقًا؛ بل طاغيةً وقاسى القلب وظالمًا. وإنه من المعروف أن كلاً من برنجار وأدلبرت [الثانى] صارا من أفصاله الإقطاعيين إذ أنهما استلما [ما يطلق عليه مجازًا] مملكة إيطاليا بموجب تقليدهما الصولجان الذهبى منه [أى الإمبراطور أوتو]، ومن ثم فإنهما أقسما يمين الولاء له، وكان ذلك في حضور بعض من رجالك الذين مازالوا أحياءً يرزقون في تلك المدينة، حتى يومنا هذا. وبتحريضٍ من الشيطان فإنهما انتهكا عهديهما واستوليا على الحكم بالخيانة، وعليه فإنه تعامل معهما على أنهما عبدان آبقان تمردا عليه في مملكتهم تلك. وأنت نفسك كنت ستسلك السلوك نفسه مع هذين الرجلين الذين كانا من أتباعك ثم شقا عصا الطاعة عليك».

فرد نقفور قائلاً : «إن تابعى أدلبرت الإقطاعى [أى أدلبرت الثانى] ربما فعل ذلك وهو لا يعلم !» وحينئذ أجبته : «إذا ما أنكر هو هذا الأمر فلعل أحدًا من رجاله يكون قد علم به أيضًا، وعلى كلٍ فسوف يتضح أن الأمر كذلك بعد مبارزة[1] تعقد غدًا بقرارٍ منكم». فأجاب [نقفور] : «حسنًا، فإنه قد يكون قد فعل ذلك تمامًا كما ذكرت، ولكن بالله عليك فسر لى لماذا أقدم [أوتو] على إشعال نيران الحروب بمهاجمة تخوم إمبراطوريتنا؟ فقد كنا صديقين، وكنا نأمل من خلال اللجوء لوسيلة الزواج الوصول إلى وحدة لا انفصام لها»[2].

---

[1] من المعروف أن كثيرًا من مجتمعات العصور الوسطى لجأت إلى المبارزة بغرض التحكيم.

[2] يلاحظ أن نقفور لم يكن معترضًا من حيث المبدأ على فكرة اقتران البلاط الألمانى بالبلاط البيزنطى برابطة الزواج، مما يشير إلى حنكته الدبلوماسية.

أجبته وقلت : «إن هوية ولغة الشعب في أراضي بنفنتو وكابوا Capua التي تقول أنها تنتمي إلى إمبراطوريتك تثبت أنها جزء من مملكة إيطاليا. ذلك أن اللمبارد Lombards كانوا قد أخضعوها إلى سيادتهم، كما قام لويس Louis[1] إمبراطور الفرنج Franks[2] وكذلك اللمبارد بتخليصها من قبضة المسلمين[3]، وراح ضحية ذلك الكثير من الأهالي. وكذلك فإن باندولف Pandulf[4] أمير هاتين المقاطعتين كان قد أخضعهما

---

(1) هو الإمبراطور الكارولنجي لويس الثاني (٨٤٣ - ٨٧٥م) حفيد الإمبراطور شارلمان الذي دعاه الإمبراطور البيزنطي بازيل الأول لمساندته في مواجهة المسلمين الذين استولوا على ميناء باري Bari الساحلي في جنوب إيطاليا عام ٨٤١م. انظر : قسطنطين بورفيروجنيتوس : المصدر السابق، ص١٠٩ - ١٠.

(2) أسس الفرنج المتبربرون دولةً عظيمةً في الغرب الأوربي بعد أن نجحوا في التوسع بخطى ممتدة في كل الاتجاهات، وبدأ الصدام مع اللمبارد في عهد ملك الفرنج بين القصير ٧٤١ - ٧٦٨م، وفي سنة ٧٧٣م غزا ابنه شارلمان عاصمة اللمبارد بافيا وقضى على نفوذهم في إيطاليا فيما عدا مدينتي سبولتو Spoleto وبنفنتو Benevento، وبعد هذه الانتصارات لقب شارلمان نفسه ملك اللمبارديين. والواضح أن ذلك أصبح تقليدًا في سلالته، فحمل لويس الثاني اللقب نفسه. انظر : ديفز هـ. و.: المرجع السابق، ص٦٥-٨.

(3) وهم الأغالبة الذين أسسوا دولةً قويةً لهم في شمال إفريقيا استمرت حتى أوائل القرن العاشر الميلادي وكانوا قد نجحوا في إقامة كيانٍ لهم في جنوب إيطاليا نتيجة تدخلهم في الصراع الذي نشب في إمارة بنفنتو اللمباردية عام ٨٣٩ - ٨٤١م، بين رادلكيس Radelchis وسكينولف Sikenolf فتمكن الأغالبة من تأسيس إمارة في باري استمرت ثلاثين عامًا وحكمها أمير خاص بها حمل اسم السلطان وأشار إليه الرحالة الفرنجي برنارد الحكيم Bernard the Wise في رحلته ٨٦٧ - ٨٧٠م. راجع البحث المنشور للمؤلف على أحمد محمد السيد : رحلة برنارد الحكيم إلى مصر والشام (٨٦٧-٨٧٠م / ٢٥٤-٢٥٧هـ)، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد ٢٢، ١٩٩٥م، ص١٥١-٢، ١٨٨.

(4) ورد هذا الاسم في النص الإنجليزي برسم لاندولف Landolph ولعل الرسم المشار إليه أعلاه تصحيح له، ويذكر أن باندولف ايرُنهِد Ironhead قد أقام حكمًا ممتدًا له عل أنقاض القوتين اللمباردية والبيزنطية في شبه الجزيرة الإيطالية، ولكنه كان حكمًا مزعزعًا حتى إنه لم يكن في مقدوره أن يواجه المسلمين في ميدان مفتوح، وبوفاته عام ٩٨١م، قسمت ممتلكاته بين أبنائه، ودار صراعٌ طويل فيما-

تحت سيادته لسبعة أعوام. ولم تتخلص هذه البلاد من سيطرة هذا الأمير ومَن جاءوا من بعده، كما لم يدفع الإمبراطور رومانوس [لكابينوس] مبلغًا كبيرًا من المال لمليكنا هيو [البروفنسالي] ليكسب وده. ولهذا السبب فإنه ربط بالزواج بين ابن أخيه وابنة مليكنا هيو غير الشرعية والتي تحمل اسمه. وإني أرى أنه بعد أن تولى هيو السيطرة على إيطاليا وروما ثم تركها لكم لسنواتٍ عديدةٍ، فإنك أرجعت ذلك إلى ضعفه وليس عطفه. إن رابطة الصداقة التي رغبت في عقدها كما تقول، والتي تقوم من خلال الزواج فما هي كما أرى إلا بمثابة خداعٍ وفخ : وإن مجرى الأمور وواقعها لا تفرض عليك المطالبة ولا تجبرنا على المنح، ولكن الآن قد تكشفت الخديعة، واتضحت الحقيقة، فإن سيدى [أوتو] قد أرسلني إليك للوقوف منك على مدى استعدادك (ص٤٤٦) أن تعطى ابنة الإمبراطور رومانوس [الثانى] من الإمبراطورة ثيوفانو لنجل سيدى الإمبراطور أوتو العظيم، ويمكنك أن تؤكد لي بقسم؛ وعليه ففي المقابل سوف أقسم متعهدًا بأنه سوف يقدم لك أى خدمة تطلبها، ويجزل عليك بهذا وذاك. وبالفعل فإن سيدى قد منحك وكأنما يمنح أخاه خير ضمان على صداقته، وذلك حين أعاد إليك أبوليا كاملةً وهي التي كانت خاضعةً لنفوذه، وذلك من خلال وساطتي وبناءً على اقتراحه بأن تعترف بوقوع هذا الخطأ من جانبك، وهناك شهود عديدون على هذا الأمر وهم يتمثلون في كافة سكان أبوليا».

وصف الموكب الإمبراطوري المقدس :

فقال نقفور : «ها هي الساعة الثانية قد ولت، ولسوف يبدأ الموكب

=بينهم. وكان تدخل أوتو الثانى فى جنوب إيطاليا قد حماها من التوسع الإسلامى. انظر :
Davis, R.H.C., A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis, London, Second published, 1958, p.p. 64 - 5.

المهيب فى التحرك إلى الكنيسة[1] ولذا فدعنا نفعل ما تتطلبه الساعة. ولسوف نرد عليك فيما عرضته علينا فى الوقت المناسب».

ولا يوجد شيء يمنعني من وصف هذا الموكب، ولا يمنع سيدىَّ مِن أن يستمعا إليه ! فقد احتشدت أعدادٌ غفيرة من التجار ومن الطبقة الدنيا لاستقبال نقفور وتقديم التحية إليه، وقد احتلت هذه الجحافل جانبى الطريق المؤدى من القصر إلى [كنيسة] أيا صوفيا St. Sophia[2] فى صفين كما الأسوار وقد شوهتها ما تسلحوا به من تروس ضئيلة وهزيلة، وكذلك الرماح البائسة التى كانت فى حوزتهم، والذى كان يضيف مزيدًا من الكآبة على هذه الجموع أن أغلبية الذين جاءوا فى شرف نقفور كانوا حفاة. وإننى لأظن أنهم على قناعة بأن ذلك يعد أفضل وسيلة لتزيين هذا الموكب المقدس[3] . بيد أن هناك رجال نقفور من النبلاء الذين كانوا معه يشقون

---

[1] اعتاد أهل القسطنطينية على العيش فى جو دينى بعد أن تبلور المجتمع واصطبغ بالمسيحية. وكان ميل الإنسان البيزنطى للاهوت يظهر فى كبار الأمور وصغارها. أما الإمبراطور البيزنطى فقد كان بمثابة رئيس الكنيسة الأعلى وحامى حمى الدين، ومن ثم كانت المواكب الإمبراطورية المقدسة مظهرًا من مظاهر تلك الحياة. انظر : بينز نورمان : الإمبراطورية البيزنطية، تعريب : حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٠، ص٣٢-٣، ٧٧.

[2] تأسست هذه الكنيسة ضمن أعمال الإنشاءات التى صاحبت بناء مدينة القسطنطينية فيما بين عامى ٣٢٤ - ٣٣٠م، ثم قام الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) بإعادة بنائها فى القرن السادس الميلادى، وجدير بالذكر أن من مكوناتها مقاعد خصصت لأعضاء البلاط الإمبراطورى، بينما اتخذت النساء مقاعدهن فى الطابق العلوى، وقد بلغ فن العمارة المسيحى الذروة فى الكنيسة، حتى صُنِّفت على أنها أجمل كنيسة فى العالم كله إبان العصر البيزنطى. ولمعرفة المزيد راجع :

Bailly, Auguste, Op. Cit., p.p. 92-3

موس هـ. و. : المرجع السابق، ص١٥٣ - ١٥ جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق، ص٥١، ٥٢، ٧١، ٧٧، ٨٥.

[3] شرح الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس لولده أسرار قواعد اللياقة فى البلاط الرومانى الشرقى. كما وصف وصفًا دقيقًا ومفصلاً لسلسلة الاستقبالات والاحتفالات التى تجرى بانتظام، ومن ثم ذكر=

طريقهم عبر تلك الحشود من العامة والحفاة وهم يرتدون عباءات التُنِك tunics[(١)] الفضفاضة التي كانت بالية حيث أكل عليها الزمان وشرب. وإني لأرى أنه كان من الأفضل عليهم أن يرتدوا ملابسهم المعتادة في هذا الموكب، ولم يكن أحد من بينهم قد امتلك جده مثل هذه العباءات حينما كانت جديدة[(٢)]، ولم يكن يتزين أحد منهم بالذهب ولا بالجواهر فيما عدا نقفور وحده، الذى ترصعت ملابسه بالزينة الإمبراطورية التي اقتناها أسلافه وأعدوها لأنفسهم من قبل، ثم آلت إليه ولكنها تبقى فجة ومقززة طالله يا سيدى يا من عزتك أهم عندى من عزتى، وأن عباءة واحدة من عباءات نبلائك تعدل مائة من تلك التى ارتداها نقفور بل أكثر، وتم اقتيادى للانخراط في هذا الموكب الكهنوتي، واختير لى مكانًا مرتفعًا.

وكما يزحف حيوان الهولة[(٣)] البشع، تقدم نقفور ووصل المكان، وحينئذٍ صاح المغنون مهللين يهتفون به في تملقٍ قائلين : «ها هو نجم الصباح (ص٤٤٧) يقترب فانظروا إليه كما وكأنه الإلهة إيِيُوس Eos[(٤)] فى بهائه؛

- وصفًا للملابس والإجراءات والكلمات الرسمية التى جعلتها العادة مع مرور الزمن مقدسة، كما تناول الإمبراطور كيف كان الأهالى يلعبون الألعاب القوطية ويرقصون وهم يحملون التروس والرماح وسط جماعات جاءوا بها من كل صوب. ولمعرفة المزيد راجع :

Constantine Porphyrogenitus, De Ceremonis, Aulae Byzantinae, Ed. Bekker, Corpus Scriptorum Histoire Byzantinae, Bonne, 1829 - 1830, p. 656; Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 123.

(١) التُنِك : رداء رومانى طويل ذو أكمال يلبسه الرجال والنساء، وربما أيضًا يرتديه الكهنة

Simpson, D.P., Op. Cit., p. 618.

(٢) بمعنى أن هذا الطراز من الملابس التُنِك يعود إلى أجيال وأجيال من قبل.

(٣) وردت صورته فى معاجم اللغة فجاءت مقززة ومخيفة، وذلك فى مادة : monster.

(٤) إلاهة الفجر فى الميثولوجيا الإغريقية، وهى إحدى فرسات الشمس، ولذا فهى تقطن حيث تشرق.

Ibid, p. 216.

وهو يعكس بومضاته أشعة الشمس، بل إنه الموت الزؤام للمسلمين[١] ذلك هو نقفور الذى يحكم». ثم مضوا فى تهليلهم : «فليحيا الحاكم نقفور. إنى أقدسه والشعب يعبده فاحنوا هاماتكم له هو وحده» ! وكان من الأولى أن يقولوا : «أقدم يا من أحرقت النار يا أيها الأحمق، يا امرأة عجوز فى مشيك، يا شيطان الغابة فى نظرتك، يا أيها الفلاح الجلف، يا مرتاد كل مكان عفن، يا من ذا قدم تشبه قدم العنزاء، يا ذا القرنين، يا من تلتصق ذراعاه فى ذراع واحدة، يا أيها الفظ العنيد الجلف البربرى غليظ القلب المشعر المتمرد القبادوكى Capadocian»[٢] ! وبالعبارات السابقة انتفخت أوداجه انتشاءً

---

[١] يرى الأستاذ أوستروجورسكى أن الحرب ضد الإسلام كانت بالنسبة لنقفور فوقاس رسالةً مقدسة كما كان الجندى الذى يقتل فى ميدان المعركة ضد المسلمين بمثابة شهيد، وبالفعل شهدت الست سنوات التى حكمها حروبًا طاحنة مع المسلمين انتصر فى أغلبها وذلك فى ميدان بلاد الجزيرة وشمال الشام والميدان الصقلى وفى قبرص، وتمثلت انتصاراته الرئيسية شرقًا فى سحق قوة أمراء الحمدانيين فى حلب حيث استولى على عين زربة والمصيصة وأذنة فى عام ٩٦٤م، وطرسوس فى عام ٩٦٥م، ومدن اللاذقية ومعرة النعمان وحمص وحلب وأخيرًا أنطاكية فى عام ٩٦٨م، فبدا نقفور بطلاً فى أعين جنده وشعبه. انظر: كمال الدين بن أبى جرادة : المصدر السابق، ص١٣٥ - ٦، ١٣٨؛ راجع أيضًا: ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الشيبانى ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ، ١٢ج، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج٨، ص ٥٣٨ -٤١، ٥٧٢، ٥٨٩، ٥٩٦ - ٧؛

Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 315

وهناك دراسة انصبت على حروب نقفور الثانى ضد المسلمين فى الشرق الإسلامى بوصفها حروبًا مقدسة يمكن مراجعتها فى : عمر كمال توفيق : الإمبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضى المقدسة (٩٦٣ - ٩٦٩م)، الإسكندرية، فبراير ١٩٥٩م، ص ٢٧ - ٤٨.

[٢] غلب الهجاء على عبارات ليوتبراند إذ اجتمعت الدراسات المتخصصة فى التاريخ البيزنطى على أن نقفور كان ينتمى لأسرة أرستقراطية ومع ذلك كان عنيفًا ويعيش حياة بها تقشف إلى حدٍ ما، ولم يكن جذابًا، بيد أنه كان وَلِعًا بالحرب وكثيرًا ما ينفق وقته فى الصلاة وزيارة رجال الدين فاجتمعت فيه صفتا المحارب والراهب.. انظر :

Schlumberger, G., Op. Cit., p. 249; Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 311. =

بما سمعه من هؤلاء الكاذبين الحمقى، وها هو يدخل كنيسة أيا صوفيا، ومن خلفه أتباعه الإمبراطوريون[1]. ومن بُعْدٍ تقدم حامل الترس ومعه سهم مدبب، وأخذ يذكر أمجاد السابقين ويترحم عليهم في أرجاء الكنيسة المختلفة وصولاً إلى عهد نقفور، وبذلك أحيط هؤلاء الذين لم يعاصروا هذه الفترة الزمنية علمًا بما كان يجرى فيها من أحداث[2].

ليوتبراند على مائدة نقفور ومناقشة حادة :

وفى هذا اليوم نفسه أمرنى [نقفور] بأن أنزل ضيفًا عليه، ليس لأنه يرانى أستحق ذلك، إذ كان عليه أن يضعني في مكانٍ أسمى من كل نبلائه ولكنه أجلسنى فى الترتيب الخامس عشر منه، وكانت المائدة التى أجلس عليها بلا مفرش. ولم يجلسوا أحدًا من حاشيتي معي على المائدة، ليس هذا

- بيد أن ليوتبراند كان صادقًا حينما نسب نقفور إلى إقليم قبادوكيا Capadokia الواقع فى آسيا الصغرى. راجع : عمر كمال توفيق : المرجع السابق، ص١٤-٤٥؛ جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق، ص١٧٠. وجدير بالذكر أن الغرض من وراء تنظيم تلك المواكب هو إبهار الزوار الأجانب الذين يتواجدون بأعدادٍ كبيرٍ فى العاصمة. راجع ذلك فى :

Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 272.

(1) حددت إحدى الدراسات هؤلاء بأنهم رجال الحزبين البيزنطيين الشهيرين : الزُرق Les Bleus والخضر Les Verts الذين كانوا بمثابة الحراس الوطنى؛ وكان يتم استدعاؤهم فى الحفلات والتشريفات، كما كانوا يقومون بوظيفة الحرس للإمبراطور فى تجولاته عبر المدينة أو فى زياراته للكنائس الأكثر قدسيةً. انظر :

Jarry, Jacques, Hérésies et Factions dans l'Empire Byzantin du IV^{e} au VII^{e} siècle, Le Caire, 1968, p. 545.

(2) من الملاحظ على غير العادة أن ليوتبراند لم يسخر من هذا النوع من العسكرية البيزنطية رغم تدنيها، وهذا يدفع الباحث إلى الاتفاق مع الرأى الذى يرمى إلى أن كهنة الكنائس المتبربرين فى القرن العاشر الميلادى -وكان ليوتبراند منهم بصفته أسقف لباردى- كانوا على دراية كبيرة بأمور الحرب، ولذا لم يُبْدِ مجرد الاندهاش مما رآه. راجعْ هذا الرأى فى :

Jarry, Jacques, Loc. Cit.

فحسب، وإنما لم يشهد أحد منهم ذلك البيت الذى نزلت فيه ضيفًا[(١)] .

وفى أثناء تناول هذه الوجبة الكريهة المثيرة للغثيان والتى غُمر فيها الطعام بالزيت وذلك على طريقة المخمورين إذ كانت تغص فى منقوع السمك الفاسد، أخذ يوجه لى عديدًا من الأسئلة تتعلق بحجم سلطانك وحدود ممتلكاتك وجيشك. وعليه أجبت بصدقٍ على أسئلته، وحينئذ قال لى : «أنت كاذب؛ فإن جنود سيدك لا يعرفون كيف يمتطون جوادهم، ولا يستطيعون خوض الحرب وهم مترجلون؛ فإن حجم تروسهم، وثقل دروع صدورهم، وطول سيوفهم، ووطأة خوذهم لا يمكنهم من القتال فى اتجاه معين، بل ولا فى أى اتجاهٍ آخر». ثم أضاف وهو يبتسم : «كما أن شراهتهم فى الطعام تحولهم دون ذلك، فإلههم هو بطنهم، ولا تصمد شجاعتهم أمام الريح، وما إقدامهم إلا ضربًا من هذيان المخمورين، ولإن صيامهم هو الموت والعدم، أما صحوتهم فما هى إلا فزعة الخوف والرعب، علاوةً على أن سيدك [أوتو] لا يمتلك أى سفن فى البحر. وإننى أنا وحدى الذى أمتلك القوة البحرية؛ ولسوف أهاجمه بسفنى[(٢)] ، ولسوف أسحق مدنه الواقعة على الساحل بالحرب، أما تلك القريبة من الأنهار فلسوف أجعلها خرابًا يباباً.

---

(١) بالطبع يتنافى ذلك مع مشاعر السفير الحقيقية إذ أنه كان يشعر بأنه سجينًا وليس ضيفًا وما ذكره يعد على سبيل التهكم.

(٢) نجحت الدولة البيزنطية فى عام ٩٦١م فى استعادة جزيرة كريت من قبضة المسلمين بعد أن فشلت فى ذلك مرتين، وذلك بفضل أسطولها البحرى الذى تنامت قوته فى ذلك الوقت. كما دخلت الدولة فى عهد نقفور فى حروبٍ بحريةٍ شرسةٍ ضد المسلمين فى قبرص وعند شواطئ صقلية فى عام ٩٦٥م. وهكذا اجتمعت الشواهد لتؤكد على قوة أساطيل بيزنطة ونهوضها بعد عثرتها فى هذا المضمار. راجع: بينز نورمان : المرجع السابق، ص٣٧١ – ٢؛ السيد الباز العرينى : المرجع السابق، ص٤٣٣ – ٤١، ص٤٩٠–٧.

وإنى أتساءل أيقدر سيدك على مقاومتنا (ص٤٤٨) بجيشه من المشاة القليل العدد ؟ وإن نجله وكذلك زوجته كانا هناك، كما كانت أعداد من السكسون Saxons والسوابيين Swabians والبافاريين Bavarians جميعًا في صحبته : وإذا ما لم يكن لديهم الخبرة الكافية بحيث أنهم لم يتمكنوا حتى من الاستيلاء على مجرد مدينة صغيرة من التى قاومتهم[1] ، فكيف يتمكنون من الوقوف في مواجهتي حين آتي إليهم، وأنا الذى خلفتنى أعداد كبيرة من الجند تضارع[2] عدد سنابل القمح فى مزارع جرجارة Gargara أو أغصان جزيرة ليسبوس Lesbos[3] المنبسقة. وربما ضاهت نجوم السماء الساطعة، أو أمواج الخضم المتلاطمة». وحينما رغبت بعد ذلك فى الرد عليه بإجابة جديرة بما هو عليه من تباهٍ وفخر، لم يسمح لى بذلك؛ بيد أنه أضاف وكأنه يسخر مني : «إنكم قومٌ من اللمبارد لا من الرومان». وحينما أراد أن يمضي في حديثه إلى أبعد من ذلك ملوحًا بيده ليجبرني علي السكوت، قلت في غضبٍ : «إن التاريخ يذكر أن روملوس Romulus قاتل أخيه والذى أخذ الرومان منه اسمهم أيضًا[4] كان ابن سفاح؛ ولذلك فإنه أنشأ ملجأً باسمه يأوى إليه أولئك المدينون العاجزون عن سداد ديونهم، كما يلجأ إليه

---

[1] المدينة المعنية هى مدينة بارى الساحلية عند مدخل البحر الأدرياتى فى جنوب إيطاليا، وهى التى عجز أوتو الكبير عن غزوها فى عام ٩٦٨م وقبيل إرساله سفارة ليوتبراند إلى القسطنطينية. راجع : Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 316.

[2] وشرع فى نظم ما يشبه الشعر وصفًا لجنده.

[3] وهى إحدى جزر بحر إيجة؛ ومن ثم نلمس تأكيدًا من الإمبراطور نقفور على الربط بين كفاءة جنده القتالية بالبطولات الهلينية القديمة.

[4] يقصد ليوتبراند بذلك حادثة قتل رومولوس شقيقه ريموس Remos ليستأثر وحده بالحكم فى مدينة روما، عن هذه الحادثة راجع : كولتون ج.ج. : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق : جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية ١٩٨٣م، ص٢٦٨ هـ١.

الآبقون وسافكو الدماء، فأولئك الذين يستحقون القتل جرّاء ما اقترفت أيديهم. وفى الحقيقة فإن (روملوس) حشد من هذه العناصر جمعًا ثم أطلق عليهم الرومان. وإن مَن يطلق عليهم سادة العالم وحكامهم الذين انحدروا من سلالة مثل هؤلاء النبلاء، وهم المعنى بهم الأباطرة، وأولئك نزدريهم نحن شعوب اللمبارد والسكسون والفرنجة واللوثرنجيون Lotharingians[1] والبافاريون والسوابيون والبُرجنديون Burgundians[2]، ولذا فحينما يفيض بنا الكيل ونريد الحطَّ من شأنهم فلن نجد أدنأ من كلمة رومانى كى ننتعهم بها، وإذا ما كانت كلمة رومانى تعنى مدلولها فإنها تشمل كل معانى الخِسة والجبن والطمع والدعة والكذب؛ بل لتقل أنها تعنى الانحلال بعينه[3].

ولكن لأنك تدعى بأننا لسنا بأهل حرب وليس لنا قِبَل بفنون الفروسية، وإذا ما كنت ستستمر فى غيك وفى ذنبك حيال المسيحية، فلسوف تثبت لك معركتنا التالية ضدك ما حجمك ومدى قدرتنا على القتال».

اشتط نقفور غيظًا من وقع هذه الكلمات، وأمر بإشارة من يده بأن أصمت، كما أمر برفع المائدة الطويلة الرفيعة من أمامى، وبضرورة أن أعود إلى سكنى الكريه وبشكلٍ أوقع إلى السجن. وبعد مرور يومين هناك أُصبت

---

[1] ينتسبون إلى إقليم لوثرنجيا Lotharingia الواقع فى تقسيم الأراضى الوسطى للدولة الكارولنجية وفق معاهدة فردان ٨٤٣م.

[2] عدد ليوتبراند الأجناس والقبائل التى شكلت ألمانيا العصور الوسطى، وكان ذلك ضمن جهود هنرى الصياد من الفرع السكسونى الذى نجح فى أن يفرض عليهم حكمًا ضم أدواق تلك الشعوب، واضعًا نظام الملكية الانتخابية فى ألمانيا، وعانى خلفه أوتو الكبير كثيرًا من أجل توطيد حكمه فى ظل تعدد الشعوب المكونة لدولته. راجع : ديفز هـ. و. : المرجع السابق، ص٧٢ – ٦.

[3] بلغ ليوتبراند فى عباراته هذه إلى ذروة الهجاء للبيزنطيين، وهى تعكس مدى كرهه لهم ولإمبراطورهم نقفور.

بمرضٍ شديد جراء الغيظ، وكذلك الحرارة والعطش. (ص٤٤٩) وفى حقيقة الأمر لم ينجُ أحد منا أن ورفاقى من أن يتجرع من كأس هذا العذاب، وأحس كل منا بأن نهاية أجله أصبحت قاب قوسين أو أدنى. وأتعجب لماذا لم يصب الإعياء رفاقى وشربهم كان ماءً أجاجًا وليس بأفضل أنواع الخمور؛ ولم يكن نومهم فى غرفٍ متسعة، ولم يكن بها القش، ولا حتى مجرد أرضية عادية، إنما كان على رخامٍ صلب؛ أما الوسادة فكانت من الحجر، أما بيتهم غير المسقوف فلا يحمى من وهج الحر ولا من المطر المنهمر ولا من البرد ! وإنى لأستخدم تعبيرًا شائعًا يقول إنه إذا ما حلت رحمة السماء عليهم ما كانت فى وسعها أن تخلصهم. وبعد أن أُنهكت وضاق ذرعى بما أعانيه، ومن شدة حال رفاقى ناديت على الرجل الذى يتولى حراستنا، بل تعذيبنا، وليس بالتوسل إليه فقط، بل بتقديم بعض المال، طلبت منه ضرورة أن يذهب إلى [ليو] شقيق نقفور وتسليمه خطابى متضمنًا الآتى :

«من الأسقف ليوتبراند إلى قربلاط Coropalate [1] ومستشار القصر Logothete [2] ليو؛ إذا ما فكر الإمبراطور ذائع الصيت فى إعطائى

---

(1) هى وظيفة الدَمستَق domestique التى ذكرت المصادر البيزنطية أن ليو فوقاس قد شغلها فى غرب الإمبراطورية متفقةً مع ما أورده ليوتبراند فى هذا الصدد. راجع :

Cedrenus, Georgius, Synopsis Historiae, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinorum, Bonn 1838- 9, II, p. 379; Cf. also, Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 311.

(2) هو المشرف الأكبر على القوانين وموارد الدولة الذى يمكن تشبيهه برئيس الخزانة Chancellor فى الممالك اللاتينية؛ فمنذ القرن السابع، صارت الإمبراطورية البيزنطية تصطبغ بصبغة هيلينية بالتدريج، فتحولت كثير من الألقاب اللاتينية إلى ألقاب يونانية؛ إذ أصبح الموظف الذى كان ملقبًا Rationalis بلقب Logothete أخذ يضطلع بمهام الشرطة وسكرتير الشئون الخارجية والرئيس الأعلى لخزانة الإمبراطورية، وبعد القرن العاشر الميلادى صار يسمى المستشار الأكبر The Grand Logothete وهو نوع من رئاسات الوزارات الذى يتولاه عدد من الموظفين ذوى الاختصاصات المختلفة مثل=

مطلبى الذى جئت من أجله فلسوف أتحمل ما أعانيه هنا ولن ينفد صبرى، ولكن على سيادته أن يعلم من خلال خطاباتى ومبعوثى إليه أننى لن أبق هنا بغير داعٍ، وإلا ففى المقابل، فعلى مقربةٍ يوجد سفينة للبنادقة هى على أهبة الاستعداد للإبحار، واجعله يسمح لى بسبب علتى بالهبوط إلى السفينة، وذلك لأُدفَن على الأقل فى مسقط رأسى إذا ما حلت ساعة نهايتى التى أشعر بدنوها».

ليو فوقاس فى استقبال السفير :

وحينما قرأ [ليو] هذه السطور أمرنى بأن آتى فى حضرته بعد أربعة أيام. وهناك جلس معه وفقًا لتقاليدهم عدد من الحكماء فى الفصاحة الإغريقية، وذلك لمناقشة مسألتك [يا سيدى أوتو]؛ وهؤلاء المستشارون هم: بازيلوس Basilus رئيس الحجاب وسيمون Simeon[1] كبير أمناء الدولة للشئون الخارجية، ورئيس موظفى الخزانة وإثنان آخران من كبار الموظفين. وما لبث أن بدأ حديثهم معى على هذا المنوال : «أخبرنا يا أخى لِمَ جئت إلى هنا وتكبدت كل هذه الصعاب ؟». وحينما أخبرتهم أن مجيئى كان بغرض الترتيب للزواج الذى كان يجب أن يكون ركيزة للسلام الدائم بيننا، فأجابونى قائلين : «لم يسمع سلفًا عن أن ابنة ولدت فى غرفة الإمبراطور الأرجوانية ارتبطت بالزواج مع شخص من أمة أجنبية؛ وبالرغم من أنك تطلب شيئًا عزيزًا للغاية[2]، لكن سوف تنال ما تتمناه، وذلك إذا ما قدمت

= وزير الخزانة العامة Logothete of the Public Treasury الذى كان يتولى الأمور المالية، ووزير الخزانة الحربية Logothete of the Military Chest وهكذا .. انظر :

Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 283.

أومان تشارلز : المرجع السابق، ص٧٣، ج٢؛ رنسمان س : المرجع السابق، ص١٨٤.

[1] لم يرد اسمه هنا وإنما أورده ليوتبراند فى موضع لاحق.

[2] كان الإمبراطور قسطنطين السابع يرى دائمًا أن هناك أمورًا ينبغى ألا يمنحها الإمبراطور البيزنطى لأجنبى قط كان من أهمها يد أميرة من مواليد الغرفة الأرجوانية. انظر : قسطنطين بورفيروجنيتوس :=

ما نراه حقًا لنا : رافنّا Ravenna[1] إضافة إلى روما مع جميع الأراضي المجاورة والتابعة لها امتدادًا حتى ممتلكاتنا. أما إذا كنت ترغب في الصداقة (ص٥٠٤) بغض النظر عن الزواج فلتجعل سيدك يترك روما وشأنها حرةً؛ في حين يبقى عليه أن يقوم بتسليم كل من أمير كابوا تحديدًا وكذلك أمير بنفنتو اللذين كانا عبدين تابعين لإمبراطوريتنا ثم تمردا عليها حاليًا».

أجبت عليهم بقولي: «إنكم أنتم أنفسكم ربما لا تعلمون بل أنتم تعلمون أن سيدى يحكم جميع أمراء سلافونيا Slavonians[2] الذين هم أكثر قوة من بطرس Peter ملك البلغار Bulgarians[3] الذى تزوج من ابنة

= المصدر السابق، ص٧٠-١. ويضيف شارل ديل محظورين أساسين اقترنا بهذا المحظور ألا وهما : منح التاج وإفشاء سر النار اليونانية. انظر:

Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p.64.

[1] فى القرن السادس اهتم الإمبراطور جستنيان بدمج السلطتين المدنية والعسكرية فى يد موظف واحد فى بعض أقاليم الغرب، وذلك بغرض تشديد قبضته عليها، ففى رافنا وضع نائبًا للإمبراطور فيها حاملاً لقب الإكسارخ Exarchet الذى كان عليه توجيه النظام الدفاعى، خاصة ضد اللمبارد وهو نظام مركزى بالغ الإحكام حافظت به بيزنطة على نفوذها فى شبه الجزيرة الإيطالية، ولكن فى عام ٧٥١م تمكن اللمبارد من القضاء على إكسارخية رافنا ومن ورائهم البابوية والفرنج، وكانت رافنا قد ارتبطت بمدينة روما عسكريًا وربط طريق تجارى رئيسى فيما بينهما يحميه خط من القلاع. راجع : موس هـ. و. : المرجع السابق، ص٢١٦ - ٨؛ راجع أيضًا :

Diehl, Charles, History of the Byzantine Empire,p.p. 47-8, 61

وهكذا فمن الواضح أن مطالب بيزنطة المقدمة إلى ليوتبراند تستند إلى الأحقية التاريخية لمدينة رافنا.

[2] بدأ الشعب المعروف باسم السلاف Slaves غزوه الأراضى الواقعة جنوب نهر الدانوب منذ أوائل القرن السادس الميلادى، وما لبثوا أن توسعوا فى إقليم أليريا على دفعتين فى عامىّ ٥٤٧م و٥٥١م. وفى القرن السابع واصلوا توسعاتهم فى قلب البلقان وفى العديد من الجزر المواجهة للساحل، ودخلوا كعنصر مؤسس فى دولة البلغار فى القرن العاشر الميلادى. انظر :

Diehl, Charles, History of the Byzantine Empire, p. p. 15, 27, 47, 80

ومما يذكر أن هناك من يرجع أصل الأسرة المقدونية الحاكمة فى القسطنطينية إلى أصل سلافى، حيث سكنوا مدينة خريسوبوليس، راجع : أسد رستم : المرجع السابق، ج٢، ص٣.

[3] فى عام ٥٠٢م غزا البلغار الأراضى الواقعة جنوب نهر الدانوب، وتمكنوا من تأسيس دولة قوية لهم فى الأجزاء الشمالية الشرقية من شبه جزيرة البلقان، سببت كثيرًا من المشاكل للإمبراطورية البيزنطية،=

الإمبراطور كريستوفر Christophorus»[1] فأجابوا قائلين : «ولكن كريستوفر لم يولد فى الغرفة الأرجوانية»[2].

= وذلك منذ القرن السابع الميلادى. وحاول الإمبراطور قسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١ - ٧٧٥م) فى عدة حملات بدأت من عام ٧٧٢م القضاء عليهم، غير أنه لم يَجْنِ سوى أن يصون ماء وجه إمبراطوريته أمامهم. وفى عام ٨١٣م حققوا انتصاراتٍ كبيرةٍ ضد الإمبراطورية حتى غدا الطريق إلى أسوار القسطنطينية مفتوحًا أمامهم. وفى القرن العاشر، توسعت حدود الدولة فشملت شمال الدانوب حتى البلقان وشكلوا تهديدًا رئيسيًا لبيزنطة وبلغت الدولة التى تألفت من خليط من العناصر البشرية شأوًا حضاريًا عظيمًا، وتوحدت كنيستها ونظمت. ولذا كانت حروب الإمبراطورية معهم تشكل أهم ما فى سياستها الخارجية بما فى ذلك سياستهم مع المسلمين، أما ملكهم بطرس فلقد تولى الحكم من (٩٢٧ - ٩٦٩م).

Ibid., p.p. 15, 47, 55, 68, 80.

(1) وهى التى كانت تدعى ماريا ليكابينا Maria Lecapena، ذلك أنه حينما انهزم بطرس ملك البلغار على يد الكروات، سعى إلى عقد سلام وتحالف مع الدولة البيزنطية، وكان سبيله إلى ذلك هو عقد زيجة بين البيتين، ولقى اقتراحه قبولاً وعُقد لقاء فى مدينة مسمبريا Mesembria لدراسة الشروط، وذهب وفد من البلغار إلى القسطنطينية ورأوا ماريا التى لقيت مديحًا منهم عند بطرس فأسرع إلى القسطنطينية، وهناك قابله جدها لأمها النبيل ناكيتاس Nicetas بحفاوةٍ. وتم عقد الزواج فى كنيسة العذراء The Church of Virgin فى الثامن من أكتوبر ٩٢٧م، بمدينة بيجى Pegae. وما لبث أن ساد السلام بين الطرفين. ولمعرفة تفاصيل قصة هذه الزيجة راجع :

Theophanes, Continuatus, Chronographia, ed. Corpus Scriptorum Historiae Byzantinorum, Bonn 1838, p.p. 411 - 13.

وقد فند أحد الباحثين الشروط التى انتهت إليها المعاهدة؛ وذكر أنها استندت إلى أركان ثلاثة : مبادلة الأرض، والحصول من بيزنطة على مبالغ، وكذلك التوصل إلى تنازلات اسمية منها. وأقرَّ الباحث ذاته بأن بيزنطة أحسنت التصرف فى وضع بنود الاتفاقية وتنفيذها، إذ أنها لم تقدم تنازلات حقيقية فى الأراضى، ونجحت فى تخليص الأسرى، كما لم تدفع بأكثر مما كان عليها دفعه؛ فى حين تحطم كبرياء وأنفة الإمبراطورية حين قدمت عروسًا بيزنطية لملكهم بطرس، ولكن لم يعد ذلك بضررٍ حقيقى عليها. انظر :

Runciman, S., Op. Cit., p.p. 97-8

ولمعرفة المزيد عن الجزية المفروضة على بيزنطة من قِبَل البلغار والظروف المحيطة بدفعها، راجع:

Schlumberger, G., Op. Cit., p. 343.

(2) تشير الشواهد إلى أن موقف كريستوفر الشرعى فى حمل اللقب الإمبراطورى كان مهتزًا بدليل أن اسم قسطنطين كان يتقدم عليه أحيانًا فى العملات البيزنطية. وقد اتُهم أبوه رومانوس المغتصب للقب الإمبراطورى بأنه اتخذ خطوة مخادعة حينما قام بتتويج ابنه كريستوفر إمبراطورًا فى مايو ٩٢١م، وذلك بفضل مؤامرة حماه ناكيتاس، وتوفى كريستوفر فى عام ٩٣١م. انظر : =

فقلت لهم : «إن روما التى تدعون بأنكم ترغبون فى تحريرها خاضعةٌ لمن تخضع إليه الآن ولِمَن تقوم بدفع الجزية له [أى أوتو] ألم تدين قبل ذلك بالولاء للعاهرات ؟ ألم يقم سيدى الإمبراطور العظيم فى الوقت الذى كنتم فيه تغطُّون فى ثُباتٍ عميقٍ وضعاف بتحريرها[1] من عبوديتها الغاشمة ؟ إن قسطنطين [الكبير] Constantin هو المؤسس هذه المدينة [أى القسطنطينية Constantinople] وحملت اسمه[2]، ونظرًا لأنه حكم العالم، فقد قدم الكثير من الهبات للكنيسة الرومانية الرسولية المقدسة، وعطاؤه لم يكن فى إيطاليا فحسب، وإنما غمر كل الممالك الغربية تقريبًا؛ وأيضًا الممالك الشرقية والجنوبية حيث بلاد اليونان Greece ويهوديا Judea[3] وفارس Persia وبلاد الجزيرة Mesopotamia وبابل Babylonia ومصر Egypt وليبيا Libya وذلك بالتحديد : وإنه لحق مكتسب لنا أن بعضًا من هذه الأراضى محفوظ لنا كجزء من أراضينا. وعلى أية حال، فإن الأراضى التى تتبع سيدى الآن فى إيطاليا، وفى أجزاء من سكسونيا وبافاريا ما هى إلا بلاد تنتمى إلى كنيسة الرسل المباركين كان قد أنعم بها عليهم. ولتحط علىَّ لعنات الرب لو أن مولاى قد احتفظ لنفسه من كل هذا بمدينةٍ واحدةٍ أو بمقاطعةٍ أو مقطعٍ vassal أو عبدٍ –ولكن لماذا لم يقم إمبراطوركم بفعل نفس الشيء ؟ لماذا لم يُعِد لكنيسة الرسل المباركين الأراضى التى تنتمى إليها

= Runciman, S., Op. Cit., p.p. 66 - 78.

[1] فرض أوتو مرة أخرى سيطرته على روما قبل عامين من سفارة ليوتبراند إلى القسطنطينية.

[2] قام قسطنطين الكبير Constantin The Great (٣٠٦ – ٣٣٧م) بتشييد مدينة القسطنطينية فى ستة أعوام ٣٢٤ – ٣٣٠م فى موقع قرية بيزنطية القديمة على البسفور Posfor لتكون عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية فى الشرق. راجع : حسنين محمد ربيع : المرجع السابق، ص١١ – ٢.

[3] المقصود بها أرض فلسطين.

داخل مملكته؛ وإذا ما أقدم على فعل ذلك فلسوف يجعل تلك الكنيسة غنية وحرة، أما إذا قام سيدى بذلك فلسوف يبقى على ثرائها بل ولسوف يمنحها حرية أكبر وذلك بفضل همته وكرمه»[١].

فقال بازيلوس رئيس الحجاب : «ولكن [نقفور] سوف يقوم بهذا العمل بمجرد أن يُخضع روما والكنيسة الرومانية تحت سيادته». وحينئذٍ قلت : «لقد قاسى البعض من ظلم عظيم فوجهوا إلى الله يسألونه قائلين : "أنقذنا يا الله وانتقم من أعدائنا"!» فقال لهم الرب : سوف ألبِّى دعاءكم حين يأتى يوم الحساب الذى يعاقب فيه كل مخطئ عن سيئته ! فقال : «واحسرتاه ! بيد أن ذلك سيكون متأخرًا جدًا !».

وحينئذٍ ضجت القاعة فى ضحكٍ فيما عدا شقيق الإمبراطور. وعليه أنهوا لقاءهم معى (ص٤٥١) وأمرونى بالعودة مُقادًا إلى مسكنى المقيت فارضين علىَّ حراسة مشددة، ومكثت هناك حتى حل عيد الرسل المقدسين The Holy Apostles وهو يوم عظيم يكرمه كل المؤمنين. وفى هذه المناسبة السعيدة، أمرنى الإمبراطور بمقابلته فى كنيسة الرسل المقدسين[٢] ، وكنت مريضًا فى ذلك الوقت، وكذلك أمر الإمبراطور وفد البلغار[٣] بمقابلته فى الكنيسة ذاتها. وبعد التغنى بقصائد المديح فى وصف

---

[١] العبارة لا تخلو من الوعيد والتهديد.

[٢] حملت هذه الكنيسة المسمى ذاته "الرسل المقدسين" فى القسطنطينية وهو المسمى الذى أطلق أصلاً على الكنيسة الكبرى فى روما. انظر : جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية، ص٦١.

[٣] بعد أن تُوِّجت العلاقات الطيبة بين البيزنطيين والبلغار بزواج ماريا ليكابينا بالقيصر بطرس، لم تندلع الحرب بينهما مرة أخرى إلا فى عهد نقفور الثانى، إذ كانت المعاهدة التى وقعت عام ٩٢٧م قد أبقت على دفع القسطنطينية للجزية للطرف البلغارى. إلا أن نقفور استغل فرصة تردى الأوضاع بين البلغار، فامتنع عن دفع الجزية لهم متذرعًا بانتهاك البلغار للمعاهدة وعبور بعضهم التخوم البيزنطية، فأساء=

[نقفور] وبعد وقائع الاحتفال الشعبى به، وجهت إلينا الدعوة للتقدم إلى المائدة، ثم أجلس مبعوث البلغار فى موضع متقدم عنى على الجانب نفسه من المائدة الطويلة الضيقة، وكان مبعوث البلغار هذا يحلق رأسه على الطريقة البلغارية، وكان يرتدى أيضًا سلسلةً نحاسيةً براقةً، وعلى ما يبدو لى أنها كانت من طراز الكاتشومان Catechumen[1] ؛ وكان ذلك بمثابة توجيه إهانة إليكما يا سيدىَّ الفاضلين [أوتو الأول وأوتو الثانى]، وبوصفى ممثلاً لكما فقد استُخِفَّ بى ولُفِظْتُ واحْتُقِرت، ولكننى قدمت للمسيح شكوى، ذلكم الذى أنتما فى خدمته بروحكما، وإننى لفخور بأن أعانى من هذه الإهانات من أجلكما. على أية حال، فيا سيدىَّ لقد اعتبرتُ أن تلك الإهانات لا تعنينى وإنما كانت تعنيكما أنتما، ومن ثم انسحبت وتركت المائدة. وفى أثناء خروجى وأنا فى حالة من السخط وعدم الرضا، هب كل من ليو مستشار البلاط وأخو الإمبراطور، وكذلك سيمون كبير أمناء الدولة للشئون الخارجية وأتيانى من الخلف وأطلقا صوتيهما كنباح الكلاب قائلين : «حينما تزوج بطرس ملك البلغار من ابنة كريستوفر فإن الوثائق المتبادلة التى كُتبت تعهدت وأكدت على أنه من الواجب علينا تفضيل وتشريف

=معاملة المندوبين البلغار الذين جاءوا إلى القسطنطينية فى خريف عام ٩٦٥م لاستلام الجزية وطردهم، واستعان بالروس ضدهم فأنزلوا الهزيمة بهم. وقبل أن يستأنف الروس حربهم مع البلغار فى عام ٩٦٩م كان نقفور قد أحس بخطئه ضد البلغار فتحول إليهم لضمهم إلى جانبه. ويبدو أن هذا التحول فى سياسة بيزنطة قد حدث إبان هذا اللقاء الدبلوماسى بين نقفور والوفد البلغارى الذى أشار إليه التقرير أعلاه. وعن العلاقات البيزنطية البلغارية فى هذه المرحلة راجع :

Ostrogorsky,G.,Op.Cit.,p.317

السيد الباز العرينى : المرجع السابق، ص٥٠٤-٥٠٥، وقد حدد تاريخ قدوم المندوبين البلغار بعام ٩٦٧م.

(1) من الواضح أنه نوع من الحلى ذى طراز معروف فى أوربا آنذاك بدليل تعرف ليوتبراند عليه.

وتمييز رسل البلغار عن رسل سائر الأمم الأخرى[1]؛ وإن رسول البلغار هـذا الذى تراه أمامك وهو كما قلت ذو حلاقةٍ غريبةٍ وقذر ويتزين بسلسلة نحاسية براقة، فبالرغم من ذلك كله فإنه نبيل رومانى؛ وإننا لنؤكد ونقر بأنه لا يجب أن نعطى أسقفًا الأفضلية عليه، خاصةً وأن هذا الأسقف من الفرنج. ونظرًا لأننا نعلم أنك تعتبر أن فى ذلك عدم تقدير لك، فسوف لا نسمح لك كما تعتقد فى العودة إلى حيث كنت، وإنما سوف نجبرك أن تتناول طعامك فى حجرة منفصلة مع خدم الإمبراطور».

جانب من المراسم البيزنطية فى استقبال السفراء الأجانب:

فى الواقع لم أرد على ذلك بالرغم من أن قلبى كان يعتصر من الألم، بل أقبلت على تنفيذ ما أمرانى به؛ إذ كنت أضع نصب عينى أن هذا المكان غير لائقٍ لى –ليس بصفتى ليوتبراند الأسقف وإنما لكونى مبعوثًا من قبلكما– وإنما يليق بمبعوث يأتى من قِبَل البلغار؛ إلا أن الإمبراطور المقدس[2] هدّأ من روعى (ص٤٥٢) من خلال هدية عظيمة أرسلها فى أشهى أطباقه إذ احتوت على لحم ماعز بدين، وشاركنى الإمبراطور بأن أخذ شيئًا منها لنفسه، وحقًا

---

[1] يمكن التعبير عن هذا الوضع فى دبلوماسية اليوم بأن بلغاريا احتلت مكانة الدولة الأولى بالرعاية من قِبل بيزنطة، هذا وقد ظل هذا الوضع على حاله حتى تم القضاء على الأسرة البلغارية الحاكمة فى وقتٍ لاحقٍ بعد مقتل نقفور الثانى ٩٦٩م. راجع : رنسمان س : المرجع السابق، ص١٨٦.

[2] تم الإشارة فى حاشية سابقة إلى اللقب الإمبراطورى باسيلوس من الناحية الوظيفية أما وقد حمل الإمبراطور صفة القداسة فقد بدا الإمبراطور البيزنطى بعد انتشار المسيحية وكأنه فوق الطبيعة البشرية واكتسب صفة القداسة فغدا يمثل الله فى الأرض، بل دُعى بالخالق ذاته بصفته الكاهن الأكبر فى الكنيسة، ومن ثم فقد تخلص تمامًا من كونه بشرًا لأنه لا يستمد سلطانه إلا من الرب، فمنذ القرن التاسع الميلادى اكتسب تلك الصفات بمجرد تتويجه ثم مسحه بالزيت المقدس حتى ولو كان مغتصبًا للعرش، فقد كان ذلك يعد بمثابة مولد آخر جديد له. لمعرفة المزيد راجع :
Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 272 - 5.

ممتعًا كان طعامًا لذيذًا! إذ تم حشوه بالثوم والبصل والكراث المغمور فى صلصة السمك : وكنت أتمنى [يا سيدى أوتو] أن يوضع هذا الطبق على مائدتك أنت، إذ أنك لا تقنع بمدى شهية أطعمة ذلك الإمبراطور المقدس، وحينئذٍ سوف تكون شاهدًا على تلك الأطعمة الناخرة ![1]

جدال حول الخلاف الدينى :

وبعد مرور ثمانية أيام، غادر البلغاريون المكان، واعتقادًا من الإمبراطور فى أننى أنظر إلى مائدته بنظرة ملئها التقدير والإعجاب، فقد أرغمنى على الجلوس معه لتناول طعام العشاء فى المكان ذاته، بيد أننى كنت مريضًا. وفى حضور عديد من الأساقفة، إضافة إلى البطريرك [بوليوكتوس Polyeuctes][2]، وجّه إلىّ الإمبراطور الكثير من الأسئلة التى تتعلق بالكتب المقدسة؛ وبوحى من الروح المقدسة شرحت إجاباتى ببلاغة. وأخيرًا فلكى أُدخل على نفسك السعادة والحبور فقد سألنى [نقفور] : «أى المجالس الكنسية نُقِر نحن بها ونعترف» وحنيئذ ذكرت له مُعَدِّدًا مجالس : «نيقيا Nicea[3]

---

[1] يبدو أن ما وصلت إليه القسطنطينية من شأوٍ حضارى فى شتى المجالات أجبر ليوتبراند على أن يعترف بل ويدلى بشهادته مؤكدًا على المستوى الرفيع الذى ميَّز حتى فنون الطهى البيزنطى.

[2] تولى بطريركية القسطنطينية من (٩٥٦ - ٩٧٠م) و لم يرد ليوتبراند اسم بوليوكتوس فى هذا الموضع من النص بينما أورده فى موضع لاحق، ص٨٩.

[3] لم يذكر ليوتبراند المجالس الدينية بترتيبها التاريخى الصحيح، ولذا أذكرها نقلاً عنه على النحو الآتى : نيقيا - خلقدونيا - أفسوس - قرطاج - أنقرة - القسطنطينية. وعليه قام الباحث بإعادة ترتيبها كما هو مبين أعلاه، وفيما يختص بمجلس نيقيا، فقد رأى الإمبراطور قسطنطين الكبير فى عام ٣٢٥م أن يوحِّد الكنيسة بعد أن اعترف بالمسيحية دينًا، فدعا إلى عقد أول مجمع مسكونى فى مدينة نيقيا لبحث العقيدة وشئون الكنيسة، ولبَّى الدعوة ٣١٨ أسقفًا من أساقفة العالم المسيحى، وتم مناقشة أفكار-

والقسطنطينية[1] وإفسوس Ephesus[2] وخلقدونيا Chalcedon[3] وقرطاج Carthage وأنقرة Ancyra[4]». فأجاب عليٌّ مقهقهًا : «هـا هـا هـا، لقد نسيت أن تذكر مجلس سكسونيا[5]، ولو سألتنا لماذا لم تتضمن كتبنا ذكرًا

= الكاهن آريوس Arius السكندرى والشماس أثناسيوس Athanasius المتعارضة حول طبيعة السيد المسيح، ورفض المجتمعون آراء آريوس، فأخذت أسس العقيدة المسيحية فى التكوين مبنية على آراء أثناسيوس التى تخلص إلى وحدة الطبيعتين فالأب إله حق والابن إله حق وكلاهما أزلى. ويمكن مراجعة المزيد عن هذا المجمع المهم فى : ميشيل جرجس : الكنيسة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٧٠-٤١؛ إسحق عبيد : الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة فى "مدينة الله"، القاهرة ١٩٧٢م، ص٨٣-٤٤؛ حسنين محمد ربيع : المرجع السابق، ص٢٥-٤٩؛ رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، أثناسيوس، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٢، ص ٦١-٤.

(1) دعا إليه الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م) وتم عقد هذا المجمع بالقسطنطينية فى عام ٣٨١م. وتوصل المجتمعون فيه إلى قرارات مهمة منها إعلان المسيحية دينًا رسميًا فى الإمبراطورية والتأكيد على الالتزام باعتناق الأفكار الأثناسيوسية وقمع الأريوسية وأن ترفع بطرياركية القسطنطينية بحيث لا يسبق أسقفها فى المكانة إلا بابا روما. انظر : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، ثيودوسيوس وأمبروز، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٣م، ج٤، ص٥٧-٨٤؛ موس هـ. و. : المرجع السابق، ص٦٩-٧٠.

(2) هناك مجلسان مبكران حملا مسمى إفسوس فى عام ٤٣١ وفى ٤٤٩م، وفيهما تم إقرار المذهب المونوفيزتى Monophysitism (الطبيعة الواحدة) بينما أنكر الطبيعة البشرية للسيد المسيح، إذ أن ناسوته تلاشى فى لاهوته، غير أن البابوية رفضت ما ورد بهما وأسقطتهما من عداد المجامع المسكونية حتى عرف الأخير بمجمع اللصوص Latrocinium. انظر : السيد الباز العرينى : المرجع السابق، ص٤٥-٦٦؛ بينز نورمان : المرجع السابق، ص١٠٣.

(3) انعقد مجلس خلقدونيا المسكونى الرابع فى عام ٤٥١م. وفيه أدينت قرارات مجمع اللصوص فى إفسوس وأُقر مذهب الطبيعتين، وجدير بالذكر أن الأفكار العقائدية لهذا المذهب غدت قاعدة التعاليم الدينية للكنيسة الأرثوذكسية. كما أن المجلس أكد على رفع شأن كنيسة القسطنطينية ووضعها فى درجة أعلى من كنيسة الإسكندرية. ولمعرفة المزيد راجع :

Jerry, Jacques, Op. Cit., p.p. 3-14.

(4) لم تُشِر الدراسات المهتمة بالمجالس الدينية المسكونية، بل والمجالس المحلية المعروفة، إلى المجلسين الأخيرين قرطاج وأنقرة.

(5) من الواضح أن نقفور كان يستهزئ بحضارة السكسونيين وتراثهم الأجوف بصفتهم متبربرين وحديثى=

لهذا المجلس، فلسوف أجيبك أن معتقداتكم لازالت غير ناضجةِ حتى إنها ليس بوسعها أن تواكبنا».

فأجبت : «إذا ما دب الوهن فى أحد أعضاء الجسم، فلابد من اجتثاثه وإلقائه فى النار. فقد انبثقت جميع الهرطقات من لدنكم، وكذلك نمت وترعرعت فيما بينكم؛ وها هنا [أى فى القسطنطينية] وبنا نحن أمم الغرب وضعنا حدًا لهرطقاتكم فى مجلس روما أو مجلس بافيا Pavian Senod[1]، وإننى لم أضع فى اعتبارى ما ورد فى هذا المجلس[2]، ولكن جريجورى Greogory الذى كان موظفًا رومانيًا وبعد ذلك غدا يعتلى الكرسى البابوى العالمى وتسمونه أنتم دايالوجوس Dialogus[3] خلص

= الدخول فى المسيحية؛ إذ من الثابت أنهم لم يعتنقوها إلا بفضل مبعوثى الإمبراطور شارلمان بعد أن حقق انتصاراته عليهم فى سلسلة من الغزوات كان آخرها فى عام ٨٠٤م. راجع :

Fichtenau, Heinrich, Op. Cit., p. 109.

[1] هو مجلس دُعى إليه بابا روما فى ٤٣٠م، وكان مجلسًا محليًا ضم أساقفة الغرب وعُقد فى روما؛ وفيه حُكم على نسطور بالهرطقة، وشكل بطريرك الإسكندرية مجمعًا مصريًا أطلق الحكم نفسه على نسطور نظرًا لرفضه إعطاء العذراء لقب "أم الإله"، وإقراره عدم ألوهية السيد المسيح، وإنما هو إنسان مُلْهَم. انظر : محمود سعيد عمران : مقالات فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٩١-٢.

[2] الواضح أن ليوتبراند لم يضع فى اعتباره هذا المجلس لأنه يتعلق بالنسطورية، وهى فى نظره عقيدة مهرطقة بصفته أسقفًا كاثوليكيًا.

[3] هو بابا روما الشهير جريجورى الكبير Greogory The Great (٥٩٠ - ٦٠٤م) وكان البابا زكريا Zachary (٧٤١ - ٧٥٢م) قد ترجم اسم جريجورى إلى اليونانية فذكره دايالوجوس الكبير؛ رغبة منه فى الربط بين الكنيسة الشرقية والغربية، وتمكن جريجورى من احتلال منزلة عظيمة بفضل نشاطه؛ إذ فى عصره قُدِّر للبابوية أن تحتل منزلةً رفيعةً ظلت لعدة قرون تالية، فاستحق حمل لقب "الكبير". عن هذه الشخصية راجع على سبيل المثال : شازوت شارل : القديس غريغوريوس الكبير، تعريب : رفائيل نخلة اليسوعى، القاهرة، ١٩٦٥م، منفرقات.=

بطريرك القسطنطينية المهرطق أوتيخا Eutychius[1] من هرطقته. وكان أوتيخا هذا قد قال بل إنه لم يكتفِ بالقول إنما لقن تعاليمه ونادى واستمر في الكتابة بأنه كان علينا أن نعتقد في أن روح السيد المسيح لا تبعث في جسده العادى إنما تبعث في جسدٍ من نوعٍ معينٍ غير تقليدى، وإن الكتاب الذى يتضمن هذا الخطأ والذى يتفق مع المذهب الأرثوذكسى هو الذى قام جريجورى بإحراقه[2]. والأدهى من ذلك أنه بسبب هرطقةٍ أخرى تم إرسال إينوديوس Ennodius[3] أسقف بافيا إلى هنا حيث القسطنطينية من قبل

= Duffy, Eamon, Saints and Sinners, A History of the Popes, Yale University, 1997, p.p. 46, 68.

[1] كان آنفًا رئيسًا لأحد أديرة مصر، أيّد بطريرك الإسكندرية فى آرائه حول طبيعة السيد المسيح خلال جلسات مجلس إفسوس ٤٣١م، وواصل تأييد خلفه ديوسقورس Dioscorus فى مجلس إفسوس ٤٤٩م، وصار مذهبه يقوم على أساس إنكار ناسوت المسيح على أساس الطبيعة الواحدة، وهو ما يعرف بالمذهب المونوفيزتى أو الأوتيخى. وفى مجلس خلقدونيا تم توجيه اللوم إلى أوتيخا لآرائه التى ظلت راسخة لدى كثير من كنائس الشرق. راجع : جوزيف نسيم يوسف : .مجتمع الإسكندرية فى العصر المسيحى (حوالى ٤٨ - ٦٤٢م) فى كتاب : مجتمع الإسكندرية عبر العصور، الإسكندرية ١٩٧٥م، ص١١١ - ٤٢؛ بينز نورمان: المرجع السابق، ص١٠١.

[2] أبرز ليوتبراند البابا جريجورى الأول على أنه المعارض الأساسى لأفكار أوتيخا، وكان من الأحرى به أن يشير إلى البابا ليو الكبير Leo The Great (٤٤٠ - ٤٦١م) نظرًا لأنه هو الذى عاصر الأحداث، كما أنه قاد الفكر المناهض للمينوفيزيتية وفنّدها فى رسالته العقيدية المسماة تومـوس Tomos إذ قال : «هناك طبيعتان فى المسيح يجب تمييز إحداهما عن الأخرى حتى بعد تجسده، وهما الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيًا بالرغم من وحدة الشخصية». ولمعرفة المزيد انظر :
Kelly, J.N.D., Op. Cit., p.p. 43 - 4.
حسنين محمد ربيع : المرجع السابق، ص٥٤.

[3] هو ماجنوس فيليكس إينوديوس Magnus Felix Ennodius ولد فى عام ٤٧٣م أو عام ٤٧٤م، اعتلى منصب أسقف بافيا بعد تقلب فى حياته الوظيفية بين نجاحٍ وإخفاقٍ، نشأ فى ولاية غالة فى وقتٍ كانت الإدارة الرومانية قد تلاشت فى ذلك الإقليم، بينما كان تعليمه فى مدينة ميلان Milan، وعاصر أدواكر Odoacer ملك الهيرول Hirols (٤٧٦ - ٤٩٣م) حين كانت إيطاليا ترزح تحت نير عديد=

البطريرك الروماني [بابا روما] وتمكن من القضاء عليها، واستعاد التعاليم الكاثوليكية الأرثوذكسية[1] —ومنذ أن اعتنقت السلالة السكسونية الديانة المسيحية [الكاثوليكية] وعرفوا سبيلهم إلى الله لم يُلطَخوا (ص٤٥٣) بظهور أى هرطقة فيما بينهم، وبالتالى لم يكن هناك حاجة لعقد مجمع كنسى لتكفير الآثام لأنه لم تحدث آثام من الأصل. وعليه فإنكم تصححون خطأً لم يكن له وجود من الأساس. ونظرًا لأنكم تعلنون أن الشعب السكسونى حديث عهدٍ باعتناق المسيحية، فإننى أريد أيضًا أن أؤكد الحقيقة نفسها؛ ذلك أن الإيمان بالسيد المسيح أمرًا جديدًا فى حد ذاته، وعليه، فكل ما يتلو ذلك يُعد أمرًا جديدًا أيضًا. الإيمان بالله ليس أمرًا مستحدثًا، بل هو أمر قديم، بينما التعبير عنه عمليًا لم يواكبه زمنيًا فصار جديدًا؛ إلا أن الإيمان فى ذلك العصر كان محتقرًا مثل عباءة بالية عفى عليها الزمان. غير أنى أعلم بما لا شك فيه أن مجلسًا كنسيًا واحدًا قد انعقد فى سكسونيا وفيه تقرر وتم التأكيد على أنه

- من الغزاة. ومن ثم جاءت نشأته فى وسط تيارات سياسية مضطربة. ضَمَّن رسائله تلميحات مضادة للوثنية. سعى دائمًا إلى طمس الخطب والرسائل المشوّهة للعقيدة، كما سعى إلى تثبيت العقيدة السليمة فى قلوب شعبه. انظر :

Diu, Samuel, Roman Society in the Last Century of the Western Empire, New York, Second ed., 1899, p. 391.

وقد تدرج إينوديوس فى المناصب الدينية إلى أن أصبح أسقفًا لأسقفية بافيا، وتوفى فى عام ٥٢١م.

انظر : Kelly, J.N.D., Op. Cit., p. 51.

[1] الثابت أن إينوديوس بذل جهودًا دبلوماسية مكثفة فى خدمة البابوية فى روما، وكان البابا سيماشوس Symmachus (٤٩٨ – ٥١٤م.) قد سعى إلى تدعيم نفوذ كنيسة روما باستردادها لبعض الكنائس والملكيات البابوية والتأكيد على علو شأن كنيسة روما، بجعل أسقفها هو الكاهن الأكبر بالنسبة للمسيحيين فى العالم والتصدى لمعتنقى المونوفيزيتية فى بيزنطة، ولذلك استعان سيماشوس بإينوديوس بجعله مبعوثًا له إلى القسطنطينية فى عام ٥٠٦م. انظر :

Ibid., p.p. 51 - 3.

من الأفضل أن تقاتل بالسيف من أن تقاتل بدونه، ومن الأفضل أن تواجه المنيَّة من أن تولى الأعداء دبرك[١]. أما أنت يا سيدى أوتو فلقد اكتسب ساعدك هذه التجربة من قبل وأثبت صحتها» ثم قلت فى نفسى : «ولعل الفرصة تسنح أمامهم قريبًا [أى السكسون] ليظهروا كيف هم برجال حرب!».

ليوتبراند بين المرض والحزن :

وفى اليوم نفسه، وبعد منتصف النهار، أمرنى [نقفور] بالتوجه إلى لقائه على طريق عودته من القصر، بالرغم من أننى كنت خائر القوى، وتبدلت أحوالى كثيرًا لدرجة أن النسوة اللاتى رأيننى آنفًا أسقط فى أيديهن وصحن «منا منا manna manna»[٢]، وها هن الآن يرثين لحالى ويشفقن على بؤسى، ويصككن صدورهن ويقلن : «يا لك من رجل بائس ومريض». وما كان علىَّ إلا أن تضرعت إلى الله سائلاً إياه –وذلك بالضبط فى الوقت الذى كان نقفور يقترب فيه– له ولك أنت أيضًا أيها الغائب بما تمنيت أن يستجيب له ! ولكنك ربما سوف تصدقنى بشدة أنه أضحكنى قليلاً؛ ذلك أنه كان يجلس على فرسٍ جامحٍ غير متزن الحركة رجلٌ ضئيل الحجم فوق

---

(١) السفير يرد على إهانة نقفور بسخريته المعهودة منوهًا إلى ما لدى السكسون من قوة عسكرية قد تعوضهم عن حداثتهم فى دخول المسيحية وإن كان من الصعب قبول نطقه بمثل هذه العبارات القاسية أمام نقفور.

(٢) لم يجد لها الباحث ترجمة، إلا أنها تذكرنا بالكلمة الآرامية منا منا التى كتبت على جدار قصر بيلشاصر ملك بابل (٥٥٣ – ٥٣٩ق.م) لتنذره بسقوط بابل القريب. انظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق، مادتا : بيلشاصر، منا منا. والواضح أن نطق النسوة بهذه الكلمات كان من قبيل التشاؤم لتردى حالته الصحية.

حيوان ضخم الجثة. وعلى الفور خطر فى مخيلتى صورة إحدى تلك الدمى التى يربطها السلافيون Slavonians الخاضعون لكما[1] فوق صهوة مهورها ويطلقون لها العنان كى تقتفى آثار أمهاتها.

بعد ذلك تم اقتيادى لأعود إلى رفاقى ومواطنىَّ الخمسة أسود حيث ذلك المنزل الكريه الذى ذكرته سابقًا؛ لأقضى فيه ثلاثة أسابيع. ولم يسمح لى بالتحدث إلى أى من الرجال إلا أولئك المرافقين لى، وعلى هذا الأساس من التعامل خُيِّل لى أن نقفور لا يرغب فى عودتى أبدًا، وجرَّ علىَّ هذا الحزن وهذا البؤس غير المحدود مرضًا تلو الآخر، حتى كان من المفترض أن أكون قد مت لولا كرامات السيدة مريم أم الرب وبركتها، فقد أبقت على حياتى بفضل من الخالق ومن ابنه؛ وقد تبين لى هذا من واقع أعيشه وأراه لا من خيال.

جلسة محادثات ثالثة مع نقفور والمسألة الإيطالية :

(ص٤٥٤) وفى أثناء تلك الأسابيع الثلاثة، كان نقفور يقيم معسكره خارج القسطنطينية، حيث ذلك المكان الذى يدعى بأرض العيون Fountains Land؛ وأمرنى أن أكون فى حضرته هناك. وعلى الرغم من أننى كنت منهكًا للغاية ليس فقط حين أقف بل إن جلوسى فى حد ذاته كان

---

[1] كان الملك الميروفنجى داجوبرت الأول Dagobert I (٦٢٨ - ٦٣٨م) قد حقق للفرنج سيادة مرموقة فى أوربا الغربية. فقد وضع حدًا لهجمات قبائل الوند Wends وهم من السلاف، حكمهم الملك ساما Sama. ولكى يقاوم داجوبرت هذه العناصر السلافية، استخدم قبائل السكسون بإعفائهم من الجزية التى كانوا يدفعونها، وعاود السكسون نجاحهم فى تأكيد تلك السيادة على هؤلاء السلاف فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. انظر : محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ص١٤٣؛ السيد الباز العرينى: تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت،١٩٦٨م، ص٢٤٠-١.

يسبب لى عبئًا ثقيلاً أجبرنى على أن أقف ماثلاً بين يديه عارى الرأس[1]؛ وذلك الأمر كان مخالفًا تمامًا لحالتى الصحية السيئة. وقال لى : «إن مبعوثى مليكك أوتو [تحت رئاسة دومينكوس البندقى The Dominicus Venetian[2]] الذين كانوا هنا من قبلك، قدموا لى وعدًا مؤكدًا بالقسم –وعلى ما أذكر فإن كلمات قسمهم توحى– بأنه سوف لا يتسبب نهائيًا فى شىء يشين إمبراطوريتى. وهل يوجد هناك ما يعد أسوأ من فضيحة أنه يسمى نفسه إمبراطورًا، أو أكثر من أنه يدعى لنفسه ملكية بعض المقاطعات من إمبراطوريتنا ؟ وكلا التصرفين لا يحتملان؛ ولذا كان كل من التصرفين ليس لهما تبرير، حيث لا يمكن احتمالهما، ولا حتى مجرد السمع بهما، خاصةً فيما يتعلق بأمر ادعائه لقب الإمبراطور لنفسه. ولكن إذا استطعت أن تؤكد على ما وعدوا به سُمُوَّنا، فإننا سندعك وشأنك على الفور سعيدًا ثريًا». وكان ذلك هو كل ما قاله [نقفور] لا أكثر...[3] ليس لأنى أتوقع منك الوقوف على الاتفاق المبرم حتى لو صور لى حُمق ذلك؛ غير أنه يرغب فى أن يكون فى يديه شىء ما حتى يظهره فى الوقت المناسب ليرفع من شأنه ويجلب لنا به العار.

---

[1] كانت التقاليد البيزنطية تقضى بعدم ارتداء القبعة فى حضرة الإمبراطور، وهذا ما أوضحه ليوتبراند بنفسه فى موضعٍ لاحقٍ (انظر ص ٦٥).

[2] لم يشر التقرير إلى اسم هذا المبعوث فى هذا الموضع بينما أورده فى موضعٍ لاحق وهو أمر تقرر من قِبل واضعه ومن الجلى أن أوتو الكبير قد أوفد هذه البعثة فى عام ٩٦٧م، ولكن لم نجد لها ذكرًا فى المصادر المتاحة، غير أن الأحداث تشير إلى أنه كان مصرًا على اتباع سياسة هجومية ضد الوجود البيزنطى فى جنوب إيطاليا وإن إرساله لمبعوثه دومينكوس البندقى إلى نقفور لم يكن إلا نوعًا من المناورة السياسية، بيد أنه من ناحيةٍ أخرى نجد أن الإمبراطور الألمانى قد ارتكن إلى العناصر الإيطالية للقيام بدور السفراء إلى بيزنطة فيما يعد ظاهرة جديرة بالدراسة.

[3] من الواضح أن هناك خللاً فى هذا الموضع بسبب سقوط بعض الكلمات من النص.

وأجبته : «إن سيدى ذو القداسة الشديدة والموصوف بالحكمة الزائدة الذى تغمره روح الله، قد توقع منكم ما تمنيتموه، ولذا فقد حرَّر لى بعض التعليمات وختمها بخاتمه خشية أن أتصرف فيها على عكس ما كُتبت: وهذه الإجراءات تعنى أننى لا يجوز لى أن أتعدى الحدود التى وضعها لى». لتعلم يا سيدى [نقفور] العظيم أن ذلك ما اعتمدت عليه حين تفوهت بما استبشرته لكن «عليك الآن أن تأتى بهذه التعليمات[١] ، وأيًا كانت مطالبه فلسوف أتعهد لك بها بالقسم. أما بخصوص ما وعد به الرسل السابقون وما أقسموا عليه وما طالبوا به فإنى أستقى من كلمات أفلاطون : "إن الذنب لمن رغب فيه أما الله فهو بلا خطيئة" "The guilt is with the wisher, the God is without fault"»[٢] .

وبعد ذلك انتقلنا إلى موضوعٍ آخر ألا وهو مسألة أميرى كابوا وبنفنتو اللذين ذكرهما [نقفور] عَبْدَيْه، وكان شأنهما يسببان هَمًّا دفينًا فى داخله ويسببان أرقًا واضحًا، إذ قال : «لقد وضع سيدك عبدَىَّ تحت حمايته؛ وإذا لم يعيدهما إلى سيادتى مثل سابق عهدهما فإن ذلك سوف يكون ضد صداقتنا (ص٤٥٥) وها هما يطلبان بنفسيهما أن يعودا تحت سيادتنا، لكن عزة إمبراطوريتنا وأنفتها تأباهما، حتى يعلما بالتجربة العملية مدى خطورة فرار عبيد من أسيادهم والهروب من العبودية. ويحسن بسيدك أن يقوم بتسليمهما لى من منطلق الصداقة، ثم بعد ذلك أتنازل عن حقى فيهما، وبالطبع فهذا الحل سوف يكون ضد رغبته، وحقيقٌ لهما أن يتلقنا درسًا منى

---

[١] ليوتبراند يطالب نقفور الذى سبق له وأن تسلم الخطابات التى أرسلها أوتو الكبير.

[٢] اقتبس أفلاطون هذه العبارة من أستاذه الفيلسوف الشهير سقراط، ويمكن مراجعتها فى محاورة تيموس لأفلاطون فى محاضرات سانتالانا Santalana، مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ١٢٨٠، ص٢٩.

إذا ما امتد بى العمر لأعطيهما إياه، فكيف يخدعـا سيدهما؛ وكيـف ينفضـا العبودية ؟ وحتى الآن فإنهما كما أعتقد يدركـان مـا أقـول، وكـان جنـودى المرابطون فيما وراء البحر[1] هم الذين تسببوا فيما وقع من أحداث !».

عندما هممت بالإجابة لم يسمح لى [نقفور] بذلك. وعلى الرغم من أننى كنت أود إنهاء هذه المقابلة، فإنه أمرنى بالعودة للجلـوس علـى مائدتـه. وكان أبوه [بارداس فوقاس] يجلس بجواره الذى بـدا لى وقـد بلـغ مـن العمـر مائة وخمسين عامًا. ولقى هذا الرجل مديحًا من قِبـل اليونـانيين الذيـن هتفـوا له[2] ربما أكثر من الإمبراطور نفسه، ولم يكن ذلك بهتاف؛ إنما صـاحوا بقـوة راجين من ا لله أن يضاعف عمره. ومما رأيته وقفت على مدى ما كـان عليـه اليونانيون من حمق؛ وكم كانوا يتطلعون إلى المجد؛ وكم كانوا يتملقـون؛ وإلى أى حدٍ هم جشعون؛ وإنه يبدو لى الآن ليس فقـط رجـلاً طاعنًـا فـى السـن، وإنما ذو لحيةٍ باليةٍ اشتعل الشيب بها. وبذلك فهم يتمنون ما هم علـى يقـينٍ به من أن الطبيعة لن تمنحه إياه. وسعد هذا الرجل ذو اللحية البالية الشـهباء بالدعوات المتعاليـة مـن أجلـه وهـو يعلـم أن ا لله لـن يسـتجيب لهـا؛ وإذا مـا استجاب ا لله لها فإن ذلك سوف يكون وبالاً عليه وليس بنعمة. أمـا نقفـور فله أن يسعد بما يسمع من مديح، فهو أمير السلام وهو نجم الصبـاح ! وبحقٍ فحينما تدعو الضعيف بالقوى، والأحمق بـالحكيم، والرجـل القـزم بـالطويل، والأسود بالأبيض، والخَطَّاء بالقديس، فإن ذلك ليس بمديح، وإنمـا هـى إهانـة

---

[1] المقصود به البحر الأدرياتى حيث شبه جزيرة إيطاليا.

[2] عندما تولى نقفور العرش، شرع فى منح الألقاب الشرفية للمقربين إليه، وبالنسبة لأبيه بارداس خلع عليه لقب قيصر César وهو لقب كان قد أُهمِل بحكم الزمن، ولكن نقفور أحياه ليمنحه إلى أبيه. راجع : Schlumberger, G., Op. Cit., p. 360.

وكلمات ازدراء. ومثل هذا الذى يستمتع بصفات أكثر مما هو حقيق بها إنما هو مثل الطيور [من نوع الخُفاش] التى ترى بالليل ويعميها النهار.

[قال نقفور] : «لكن دعنا نعود إلى حيث كنا حيث الطعام» –وأقدم على فعل شيء لم يفعله من قبل– وأمر بأن يقرأ موعظة القديس يوحنا الفم الذهبى St. John Chrysostom[1] بخصوص أعمال الرسل بصوت مرتفع[2]، وفى نهاية هذه القراءة حين حاولت المطالبة بالتصريح لى بالعودة إليكما، أومأ لى برأسه موافقًا، وأمر [حارسى بل] مُعَذِّبى بالعودة بى حيث كنت –حيث رفاقى ومواطنى حيث الأسود– ومن بعد هذا الموقف فإننى لم أعقد معه مقابلةً حتى ثلاثة عشر يومًا قبل غرة Calends[3] شهر أغسطس [العشرين من يوليو]، وظل حراسى طيلة هذه الفترة يفرضون علىَّ رقابةً لصيقةً خشية أن أتمتع بحديث أى شخص معى (ص٤٥٦) أقف من خلاله على ما أنجزه إمبراطورهم من عمل.

الوضع العسكرى وفقًا لتقييم السفير :

وفى ذلك الوقت استصدر [نقفور] أمرًا إلى جريميزو Grimizo رسول أدلبرت، بالمثول بين يديه والعودة بصحبة الأسطول الإمبراطورى

---

[1] ولد هذا القديس فى أنطاكية عام ٣٤٧م، ثم أصبح بطريركًا للقسطنطينية عام ٣٩٧م. وكانت حملته العنيفة ضد الفساد والتدهور فى العاصمة البيزنطية سببًا فى كراهية الكثير له مما أدى فى النهاية إلى نفيه عام ٤٠٣م. ولكنه عاد خوفًا من ثورة الشعب، ثم نفى مرة أخرى لمواقفه المتشددة. وتوفى فى منطقة البحر الأسود عام ٤٠٧م. وقد ترك كتابات كثيرة تضمنت آراءه. راجع : كولتون ج.ج. : المرجع السابق، ص٢٨٩، ج١.

[2] على هذا النحو مارس الإمبراطور مهامه الوظيفية بصفته مقدسًا، فضلاً عن مهامه كحاكم، هو راعى الكنيسة وهو الذى يلقى المواعظ فى المناسبات الدينية داخل البلاط. راجع :

Diehl, Charles, History of the Byzantine Empire, p. 90.

[3] ويعنى أوائل الشهور الشمسية فى التقويم الرومانى. ولمعرفة المزيد راجع :

Simpson, D.P., Op. Cit., p. 332.

الذى كان يتألف من عشرين سفينة –منها أربع شلنديات chelandian[1]، اثنتان من الطراز الروسى وشينيتين galleys [2] أخرتين، ولم أعرف ما إذا كان قد أرسل سفنًا أخرى لم أرها. ولإن شجاعة جنودكم يا سيدىَّ ويا إمبراطورىّ العظيمين لا تتطلب أن تشحذ هممها أمام وهن خصومهم، فى حين أن ذلك الأمر قد يكون له اعتباره عند أمم أخرى دوننا؛ وإن الأمة التى تأتى فى مؤخرة تلك الأمم، وكذلك أكثر الأمم ضعفًا بالمقارنة [مع أمتنا] تمكنت من تحطيم شجاعة بلاد اليونان وجعلها ذليلة. وليس مدعاة أن أبث فيكم الخوف لو أنى أعلنت أن حكامهم على درجةٍ كبيرةٍ من القوة حتى إنه يمكن مقارنتهم بالإسكندر المقدونى Macedonian Alexander[3]، ومن ناحية أخرى، فإنى أيضًا فى الوقت نفسه لا أبث فيكم روح العظمة حينما أروى لكم عن ضعفهم، وإنما أذكر لكم الحقيقة مجردة. وإنى آمل فى أن

---

[1] ضم أسطول نقفور الثانى قطعًا حربية عرفها الروم باسم الشلنديات كان قد استخدمها فى حروبه ضد المسلمين وفى نقل جنوده، وتشير إحدى الدراسات المتخصصة إلى أن اللفظة لاتينية الأصل chelandium ويمكن الخروج من النصوص التاريخية مجتمعة إلى أن الشلندى كان من المراكب الحربية التى استخدمها البيزنطيون أولاً فى البحر المتوسط فترة العصور الوسطى، ثم عرفته الدول الإسلامية. ويجمل وصفه فى أنه مركب مسقوف يحمل الغزاة على ظهره، بينما يحتل الجدافون الجزء السفلى، ويستغل أيضًا فى نقل السلع. راجع : ابن مسكويه (أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب، ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) : تجارب الأمم، جزءان، نشر آمدروز هـ.ف.، القاهرة ١٣٣٢ – ١٣٣٣هـ / ١٩١٤ – ١٩١٥م، ج٢، ص٢١١؛ درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤، ص٧٨ – ٨٠.

[2] يستحسن درويش النخيلى ترجمة هذه اللفظة الأوربية بالشينى ويخلص إلى تعريفها بأنها سفينة حربية كبيرة، والشينى هو الأصل الذى تتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى، فكل سفينة حربية شينى تحمل اسمًا معينًا يدل على وظيفتها، وعادةً ما تكون طويلة تقام فيها الأبراج للدفاع والهجوم والمخازن. وللمزيد انظر : درويش النخيلى : المرجع السابق، ص٨٣ – ٨٥.

[3] وهو المعروف بعظمة إنجازاته، خاصةً الحربية منها، فكان مثالاً للقائد الناجح. ومن ثم يبرز بوضوح روح السخرية التى غلبت على ليوتبراند حين الحديث عن نقفور استخفافًا به.

تصدقونى بل إننى على يقين أنكم ستصدقونى إذا قلت لكم أنكم مع أربعمائة من مقاتلى جيشكم يمكنكم أن تدحروا كل هذا الجيش ما لم تَحُلْ الأسوار والخنادق[1] بينكم وبينه. وقد وضعوا على رأس جيشهم رجلاً هو مسخة للرجال؛ وأعتقد أنهم يقصدون من وراء ذلك أن يسخروا منك، ولقد ذكرت أنه مسخة الرجال لأن ذكورته تخلت عنه كما لم يكن بوسعه أن يصبح من النساء. وقد أرسل أدلبرت إلى نقفور بكلمةٍ واحدةٍ أن لديه ثمانية آلاف فارس ثقال من حاملى الدروع، وقال أنه إذا ما ساعده الجيش اليونانى فسيصبح فى مقدوره إنزال الهزيمة بجيشك وإبادته. ويطلب [أدلبرت] من خصمك [نقفور] أن يدفع له بالأموال لعلها تجعله أكثر استعدادًا كى يقنع جنوده بالقتال.

وعلى أية حال، فالآن يا سيدىّ، استمعا إلى حيل اليونانيين، ولسوف تعلما مِن مَثَلٍ واحد منها كل شىء. فلقد عهد نقفور إلى ذلكم العبد مسئولية جمع الجيش واستئجار الجند، وأعطاه فى سبيل ذلك مبلغًا كبيرًا من المال على أن يقوم بتوزيعه على النحو الآتى : فإذا ما قام أدلبرت وفق ما وعد به بتقديم سبعة آلاف فارس أو أكثر مدججين بالسلاح، يصبح عليه توزيع هذا المبلغ فيما بينهم، عندئذ يفترض أن يقوم كونو Cono شقيق أدلبرت بقيادة جيشه مع الجيش اليونانى وشن الهجوم عليكم؛ فى حين كان على أدلبرت أن يلازم بارى Bari ويتحصن بها، وذلك حتى يعود شقيقه وقد ظفر بالنصر.

---

[1] لعل المقصود بذلك تلك التحصينات والدفاعات القوية التى ميزت مدينة القسطنطينية فترة العصور الوسطى وهى التى حققت لها مزيدًا من الأمن والقدرة على الصمود أمام المُغِيرين، وقد اهتمت عدة دراسات بهذا الموضوع يمكن مراجعتها فى :

Cyril Mango and Gilbert Dagron (eds.), Constantinople and its Hinterland, Oxford, 1994, p.p. 109 - 169.

ولكن فى حالة ما إذا جاء أدلبرت دون أن يصطحب معه تلك الآلاف السبعة من الرجال، فلسوف تصدر الأوامر بإلقاء القبض عليه ووضعه فى الأغلال ويتم تسليمه إليكما وقتما تأتيان إليهم؛ والأدهى من ذلك (ص٤٥٧) أن المبالغ التى من المفروض لها أن تدفع إلى أدلبرت كانت سوف تنتقل لتسلم فى أيديكما[١] ! أوه يا لها من روحٍ قتالية، أوه يا له من إخلاص. إنه [أى نقفور] بذلك يرغب فى خيانته، خيانة مَن، ذلك الرجل الذى تولى إعداد القوات للذود عنه؛ وهو بدوره يعد المدافعين لمن، لذلك الذى يرغب فى تحطيمه. ومن ثم فهو ليس مخلصًا لأحدٍ منكما، كما أنه غير أمينٍ مع أحدكما؛ فهو يفعل ما لا يحتاجه، ويحتاج ما لا يفعله. ولكن إذا ما كان الأمر كذلك فهو قد تصرف بما يتوقع من أحد اليونانيين أن يتصرفه ! ولكن لنعد إلى الموضوع الذى نحن بصدده.

تجريد حملة بيزنطة للحرب وفشل المفاوضات :

وفى اليوم الرابع عشر قبل غرة شهر أغسطس[٢] [التاسع عشر من يوليو] قام [نقفور] بتسريح ذلك الأسطول الذى تعددت ألون قطعه[٣] بينما

---

(١) تتجلى كما هو واضح هنا روح السخرية الشديدة حتى غدت سمة أساسية فى كتابات ليوتبراند، والقارئ لتاريخ إيطاليا فى هذه الحقبة يتبين له بوضوح تكرار مثل هذه الأحداث التى تتميز بالتقلب الشديد وفقًا لموازين القوى المحيطة ومدى تأثيرها على الحكام المحليين والدوقيات المختلفة، راجع على سبيل المثال :

Runciman, S., Op. Cit., p.p. 180-1, 189 - 193.

(٢) يلاحظ أن الرواية تعود بتاريخها متأخرًا بواقع يوم واحد عما سبق من أحداث.

(٣) استشعر الأباطرة الرومان البيزنطيون الخطر الإسلامى فى القرن العاشر الميلادى فأعادوا بناء الأسطول وتنظيمه بغرض السيطرة على البحر المتوسط، ويمكن تقدير عدد قطع الأسطول الحربى فى ذلك القرن بمائة وثمانين سفينة، وقدرت دراساتٌ أخرى عدد قطعه إبان الحملة على كريت فى عام ٩٦١م بألفى سفينة حربية وألف وثلاثمائة وستين سفينة للمؤن والإمداد. ومن السفن الحربية ما بلغ من الضخامة=

كنت أنظر إليه من خلال منزلى الكريه إلى نفسي. والأكثر من ذلك، أنه في اليوم الثالث عشر قبل بداية أغسطس [العشرين من يوليو] وهو ذلك اليوم الذى يحتفل فيه اليونانيون الطائشون بذكرى صعود النبي إلياس Elias(١) في مواقف مسرحية(٢)، أمرني بالذهاب إليه وقال لى : «إن سُموَّى أنا الإمبراطور أفكر في تسيير جيش أتولى قيادته بنفسى لمهاجمة الآشوريين Assyrians [أى الخراسانيين](٣) وليس كما يفعل سيدك حين يهاجم أتباع

= أن كان عدد المجدفين بالسفينة يبلغ مائة وخمسين، وأنه كان بالسفينة الواحدة أربع طوابق للمجاديف، ومن السفن ما جرى تشييده بحيث سهل نزول الجند والفرسان منها إلى البر مباشرة. انظر :

Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 282; Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p.p. 51-2.

لويس ر. أرشيبالد : المرجع السابق، ص٢٢٥؛ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص٤٣٦.

(١) هو أحد أنبياء بنى إسرائيل، ظهر فى مملكتهم الشمالية وانتقل منها إلى مملكتهم الجنوبية، ثم إلى جبل الطور فى سيناء. وورد فى التوراة أنه فى نهاية أيامه ذهب إلى نهر الأردن مع النبى اليشع، وهناك ضرب النبى إلياس النهر بردائه فانشق الماء ثم جاءت مركب وصعدت به إلى السماء. انظر : الملوك الثانى ٢ : ١ - ١٨، كما ورد فى العهد الجديد أن بعض الناس ظنوا خطأً أن السيد المسيح نفسه هو النبى إلياس، راجع : إنجيل متى ١٦ : ١٤.

(٢) ارتبط المسرح البيزنطى عامة بالتراث الكلاسيكى، وكان للكنيسة تأثيرها، ولم يتحرر أبدًا من قيودها، وفى القرن العاشر الميلادى، لم يدخر الأباطرة وسعًا فى تسلية الأهالى بألوان مختلفة من العروض، فكان أهمها تلك العروض المسرحية، سواء أكانت كوميدية أم هزلية. راجع فى ذلك :

Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p.p. 117, 283-84.

(٣) كان الخراسانيون التابعون للدولة البويهية الشيعية (٩٤٥ - ١٠٥٥م) قد تولوا الجهاد ضد البيزنطيين بعد ضعف الدولة الحمدانية بوفاة حليفهم أميرها سيف الدولة الحمدانى (٩٤٤ - ٩٦٧م) فوصلوا إلى الشام ونزلوا أنطاكية حيث انتهزوا فرصة انشغال نقفور بحروبه ضد البلغار فقاموا بمهاجمة التخوم البيزنطية ونجحوا فى الإيقاع ببعض القوات هناك إلا أن الإمبراطور أرسل ضدهم قوة بيزنطية هزمت هؤلاء المجاهدين فيما بين أنطاكية والمصيصة، وذلك فى عام ٩٦٨م، الموافق ٣٥٧هـ. انظر : يحيى بن سعيد الأنطاكى : صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩م، ص١٣٠؛ ابن مسكويه : المصدر السابق، ص٢٢٨؛ عمر كمال توفيق : المرجع السابق، ص٣٥. وفى هذا الموضع يجدر ملاحظة دأب ليوتبراند على استخدام الأسماء القديمة مثل "الآشوريين" بدلاً من استخدام المسمى المعاصر "الخراسانيين".

السيد المسيح[1] . وبالفعل فإننى فى العام الماضى كانت لدىَّ الرغبة فى إتمام ذلك العمل، غير أنه حينما علمت بأن سيدك قد عزم على غزو تخوم إمبراطوريتنا، أطلقنا العنان لخيولنا لمواجهته، وتركنا الخراسانيين وشأنهم. وفى مقدونيا Macedonia تم عقد مقابلة مع دومينكوس البندقى رسول سيدك [أوتو]، وبعد جهد جهيد أثنى عزيمتنا وأغرانا بالعودة، وأقسم لنا وتعهد بأن سيدك لم يفكر أبدًا فى القيام بمثل هذا العمل، وبناءً على ذلك طلب منا العودة». ولما سمعت ذلك قلت فى نفسى [والحديث لليوتبراند] : «حمدًا لله»، [ويستأنف نقفور قوله] : «عليك أن تعلم سيدك بموقفى مع الخراسانيين وبما حدث مع مبعوثه؛ فإذا ما قدم سيدك لى ما يقنعنى، فلك أن تعود إلى هنا ثانيةً».

مأدبة اللئام :

فأجبته : «لو أن ذاتكم بالغة القدسية أمرتمونى بالطيران سريعًا إلى إيطاليا، فإنى أعلم بشكلٍ مؤكد أن سيدى سوف يُنفذ ما تتمنوه سيادتكم، ولسوف أعود إليكم وأنا قرير العين سعيد». ويا حسرتاه ! فقد وصلت نقفور الروح الطيبة التى قلت بها هذه العبارة، الأمر الذى جعله يومئ برأسه لى مبتسمًا بينما طأطأت له رأسى محترمًا إياه، فأمرنى بالبقاء فى الخارج فى انتظاره والحضور إلى مائدة طعامه. وكانت رائحة الوجبة نفاذة من الثوم والبصل كما كانت رائحة الزيت وعصير السمك[2] منبعثة منها زفرة كريهة. وتمنيت فى هذا اليوم لو أنه قد تفضل وقَبِلَ هديتى التى كان يرفضها ويحتقرها دائمًا.

[1] فى ذلك إشارة إلى حروب أوتو الكبير فى إيطاليا ضد اللمبارديين والبيزنطيين المسيحيين.
[2] لعله يقول ذلك على سبيل السخرية من نوعية الطعام.

وبينما كنا جالسين على مائدته الطويلة الضيقة التى غطيت بالفرش جزئيًا -إذ كانت فى معظمها غير مغطاة-، ثم اتخذ من الفرنج مادةً فى مزاحه (ص٤٥٨) حيث شمل به كلاً من اللاتين والجرمان؛ وسألنى، ما اسم مدينتى ولأى الأسقفيات تتبع ؟ فقلت : «كرمونا، وهى شديدة القرب من نهر إيريدانوس Eridanus (البو Po) أكبر أنهار إيطاليا. ومادام عظمة شخصكم الإمبراطورى ستسرعون بإرسال سفن من نوع الشالندى إلى هناك، فلعلها تكون فرصةً ذهبية بالنسبة لى كى ألقاك وأتعرف عليك هناك ! علك تمنح سلامًا لهذا المكان، ذلك السلام الذى له أن يبقى فى ظل رعايتكم له، ولسوف يستمر طالما لم يكن فى وسعه مقاومتك». غير أن جليسى الداهية الماكر شعر بأننى أقول ذلك فى سخرية، ووعدنى ووجهه يحمل ملامح الانصياع والطاعة أنه سوف يُقْدِم على ذلك بالفعل؛ ثم أقسم لى بعظمة إمبراطوريته المقدسة أنه من الواجب ألا أعانى بعد ذلك من أى سوء، ولكن ينبغى أن أصل سريعًا محاطًا بكرمه إلى ميناء أنكونا Ancona[١] مع شالندياته، قال لى ذلك مشفوعًا بالقسم وهو يصك صدره بأصابع يده.

كان ولابد أن نلمس كيف كان ورعًا حين أقسم. ولقد وقعت هذه الأشياء فى اليوم الثالث عشر قبل غرة أغسطس [عشرين يوليو] خلال اليوم الثانى من الأسبوع [الأحد]، ومنذ ذلك اليوم وحتى اليوم التاسع [الرابع والعشرين من يوليو] لم أحصل على أية مؤن من قِبَله. وكل هذا حدث خلال فترة تفاقم وتفشى المجاعة فى القسطنطينية[٢] حتى أنه لم يكن فى

---

[١] هو ميناء يشكل حيًا بمدينة القسطنطينية، أُسس لكى يكون سوقًا تجاريًا. وبالفعل فقد راحت تجارته وبرز دوره منذ أوائل القرن العاشر الميلادى، حتى نافس مدن جنوب إيطاليا التجارية. انظر :
Runciman, S., Op. Cit., p. 24; Cf. also, Vasiliev, A.A., Op. Cit., p. 616.

[٢] لم نجد إشارة فى المصادر المتاحة إلى تفشى مجاعة فى القسطنطينية إبان زيارة ليوتبراند لها فى صيف وخريف عام ٩٦٨م، بيد أن دراسة متخصصة فى التاريخ البيزنطى أكدت على أن عصر نقفور الثانى تميز بصفةٍ عامةٍ بالارتفاع الخطير لمستوى المعيشة والانخفاض فى قيمة العملة. انظر :-

إمكاني شراء وجبة طعام لرفاقي الخمس والعشرين وحراسي الأربع اليونانيين فى مقابل ثلاث قطع ذهبية(١) . وفي اليوم الرابع من نفس هـذا الأسـبوع خرج نقفور من القسطنطينية ليحارب الخراسانيين(٢) .

= Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 317.

(١) تعاملت بيزنطة منذ أوائل العصور الوسطى بالعملة الذهبية النوميزما nomisma وصـولاً لأوائل القرن العاشر الميلادى، وكانت تعـادل فى القيمـة الصولـد solidus الـذى كـان معروفًـا فـى العهـد المتـأخر للإمبراطوريـة الرومانية القديمة وهو يساوى نحو ٣,٠٥ من الدولارات الأمريكيـة. وهـناك عمـلات أخرى فضية ساد التعامل بها فى بيزنطة خلال تلك الفترة. انظر : ليـو السـادس : كتـاب والى المدينـة، تعريب وتعليق : السيد الباز العرينى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٩، ج١، مـايو ١٩٥٧، ص١٤٧، ١٨٣، هـ٦٣. هـذا وقـد عُرفـت العملـة الذهبيـة فـى عصـر نقفـور الثـانى باسـم تيتّرتيرون tétarteron وكان وزنها أقل من المعتاد ولعلها مأخوذة من عملة التارى tari. انظر :

Ostrogorsky, G., Op. Cit., p.317-8, n.4.

ويلاحظ أنه قد تم التداول بالعملة البيزنطية عالميًا وفى المقابل كـانت أوربـا الغربيـة فـى ذلـك الوقـت لا تعرف من الصك المحلى للنقود إلا من الفضة، فى حين تعاملت إيطاليا الجنوبية بالعملة الذهبية. انظر :

Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 99

كاهن كلود : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة : أحمد الشيخ، القاهرة ١٩٩٥، ص١٧٧-٨. وفى عصر الحروب الصليبية شاع استخدام عملـة البيزنـت Besant ثـم عرفـت عملـة الهيـروبرو hyperpyron فى مرحلة تالية. راجع :

Necipogly, N., Economic Condition, ed. in Constantinople and its Hinterland by Cyril Mango, Cambridge, 1995, p. 160.

وعليه فيرجح أن ليوتبراند قد تعامل بالعملات الذهبية وكان قـد حصـل عليهـا مـن المـدن البيزنطيـة فـى جنوب إيطاليا أثناء رحلة الذهاب. كما يُظن إنه تعـرض فـى القسـطنطينية لحيـل استهدفت انتزاع مـا حصل عليه من ذهب وفقًا للقوانين البيزنطية التـى تحـرم خـروج الذهـب خـارج حـدود الإمبراطوريـة. ولمعرفة المزيد عن هذه القيود راجع : وسام عبـد العزيـز فـرج : الدولـة والتجـارة فـى العصـر البيـزنطى الأوسطى، من القرن السابع حتى نهاية القرن الحـادى عشـر الميـلادى، الرسـالة ٥٣، الحوليـة ٩، كليـة الآداب، جامعة الكويت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص١٣-٥.

(٢) بذلك يكون تاريخ خروج نقفور بحملته قد وافق يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من يوليـو، الموافـق الثـانى والعشرين من شعبان ٣٥٧هـ. وفى الحقيقة لم يعثر فى المصـادر الإسلامية تحديدًا على مـا يـدل على وصول نقفور إلى الشرق فى هذا التاريخ، إنما اكتفى كمال الدين بن أبى جرادة بذكر خروجـه لمهاجمة شمال الشام، حيث مدن كفرطاب وشيزر وحماة وعرقة وجبلة ومعرة النعمان ومعـرة مصرين وغيـرهم، وذلك فى عام ٣٥٧هـ الموافق ٩٦٨م. راجع : كمـال الديـن بـن أبـى جـرادة : المصـدر السـابق، ج١، ص١٣٨، إلا أن يحيى الأنطاكى ومسكويه أوردا تاريخ وصـول نقفـور لأعـالى الفـرات فـى ذى القعـدة ٣٥٧هـ، الموافق أكتوبر ٩٦٨م. راجع يحيى الأنطاكى : المصدر السابق، ص١٣٠-٣١، ابن مسكويه : المصدر السابق، ص٢٥٤.

طلب العودة وتجديد المفاوضات فى أمبريا :

فى اليوم الخامس، قام شقيقه [ليو] باستدعائى وقال لى الآتى : «لقد سافر الإمبراطور المقدس بينما ظللت فى الديار بناءً على أوامره. ولتقل لى الآن إذا كنت تريد مقابلة الإمبراطور المقدس [مرة أخرى]، وإذا كان لديك شيئًا لم تذكره حتى الآن» فأجبته قائلاً : «ليس لدى سبب يدعونى لمقابلة الإمبراطور المقدس ولا لسرد أى شيء جديد؛ ووفقًا لوعد الإمبراطور المقدس طلبت منه أن يسمح لى أن أعبر إلى ميناء أنكونا على ظهر سفن شلندية». ولأن اليونانيين دائمًا على أتم استعدادٍ للقَسَم برأسِ شخصٍ آخر، فلدى سماعه لما قلت، بدأ يقسم بأنه سيفعل ذلك وأخذ يقسم برأس الإمبراطور وبحياته هو نفسه وبأبنائه الذين يحميهم الرب، وأن ما وعد به صدق، وحينما سألته : «متى»، فأجاب : «سوف نتيح لك ذلك بمجرد رحيل الإمبراطور المقدس الذى سيخرج لملاقاة رواد البحر Delongaris [الفاطميين] الذين يتحكمون (ص٤٥٩) فى كل السفن»، وبناءً على هذا الأمل الخادع ذهبت مسرورًا.

لكن بعد مرور يومين، وبالتحديد يوم السبت، دعانى نقفور إلى أمبريا Umbria، وهو مكان يبعُد ثمانية عشر ميلاً عن القسطنطينية. وقال لى: «لقد اعتقدت أنك أتيت إلى هنا كرجل له شأن ومستقيم، من أجل نتمكن جميعًا من الوصول إلى الموافقة على مطالبى ولإقامة صداقة راسخة وأبدية بينى وبين سيدك لكن نتيجة لتكرار تشددك معى، فأنت غير مستعد للقيام بهذا العمل، وعليك أن تتم عملك هذا، خاصةً وأنك مكلف بإنجازه، كما عليك أن تقدم لى وعدًا بأن سيدك لن يدفع بأية مساعدات إلى أميرىّ كابوا وبنفنتو[1] وعليك أيضًا تحديد أسماء عبيدى الذين يكون فى إمكانى

[1] قبل خروج سفارة ليوتبراند بحوالى عام أخذ أوتو الكبير يعمل جاهدًا بوصفه إمبراطورًا من أجل أن يصبح سيد إيطاليا وطبيعى أن يكون فى ذلك اعتداءًا على مصالح بيزنطة. وبالفعل شن أوتو غارةً-

قمعهم. وحتى يأتي اليوم الذى لا يرفض فيه منحنا شيئًا يخصه، فلنجعله على الأقل يتنازل عن ما يخصنا. ومن المعروف أن آباءهما وأجدادهما كانوا يدفعون ضريبةً لإمبراطوريتنا، ومن هنا عليهما أيضًا أن يتأسيا بهم[1]، وليعلما أن جيش الإمبراطورية سوف يتأهب للحرب».

وأجبته قائلاً : «إن هذين الأميرين من نبلاء أرقى الطبقات، وهما تابعان لسيدى، وإذا أردك أن جيشك سيقوم بشن هجوم عليهما، فسوف يُرسل العون لهما مما يدعم موقفهما في مواجهة قواتك ويشكلان عائقًا أمامك في انتزاع الإقليمين اللذين تملكهما فيما وراء البحر»[2]. ثم تضخم [نقفور] مثل ضفدع الطين وصاح غاضبًا : «اغرب بعيدًا عن وجهي» وقال كذلك : «بنفسي وبوالديَّ اللذين أنجباني على هيئتي هذه، فلسوف أجعل سيدك يفكر في أشياءٍ أبعد مدى من حماية العبيد المتمردين».

وحينما أردت الرحيل، أمر المترجم بأن يدعوني للجلوس إلى المائدة؛

-على الممتلكات البيزنطية فى الجنوب فاعترف بسيادته أميرا كابوا وبنفنتو اللمبارديان فاعتبر نقفور هذه الخطوة انتهاكًا لكرامة بلاده ومصالحها إذ أن هذين الأميرين كانا يخضعان لسيادته. انظر :

Vasiliev, A.A., Op. Cit., p.p. 327-8; Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 316.

(1) هكذا حرص نقفور على استعادة سيادته على أقاليم جنوب إيطاليا ولعله كان يستند فى ذلك على أحقيته التاريخية فيها بصفته الوريث الشرعى للأباطرة الرومان الأوائل ومن ثم لم تَخْلُ عبارته من توجيه إنذار بضرورة تسليم الأراضى.

(2) كان الإمبراطور البيزنطى بازيل الأول قد كثف جهوده الحربية فى جنوب إيطاليا ضد المسلمين فى أخريات حياته. ففى عام ٨٨٥م، أنزل جيشًا بيزنطيًا كبيرًا فى الجنوب، نجح خلال عامين فى إعادة السلطة البيزنطية هناك، وبلغت درجة من القوة لم تعرف منذ ثلاثة قرون. واستمرارًا لسياسة بازيل الأول لإحكام قوته، تقرر إنشاء ثيمين جديدين هما لونجوبارديا وعاصمته بارى، وكلابريا وعاصمته ريو Rio لتقوية دفاعات إيطاليا. انظر : الحميرى : المصدر السابق، ص١٥٣؛ رنسمان س : المرجع السابق، ص٤٦.

Vasiliev , A. A., Op. Cit., p. 327.

واستدعى شقيق الأميرين المذكورين كما استدعى بيزنطوس أف بارى Byzantius of Bari، وأمرهما بأن يتلفظا بالشتائم الغليظة والإهانات ضد الأميرين وضد اللاتين ونسل التيوتون Teuton [أى الألمان]. لكن حينما حاولت الخروج والابتعاد عن هذه الوليمة بالبذينة، أرسل الرجلان لى بكلمة فى سريةٍ تامة من خلال رسلهما، وأقسما بأن كل ما تفوها به من أشياءٍ بذيئة كان رغم أنفهما وضد إرادتهما، وذلك بناءً على أوامر وتهديدات الإمبراطور.

جولة فى مزارع نقفور :

لكن نقفور نفسه سألنى خلال هذه المأدبة إذا كنتما تمتلكان مزارع، وما إذا كانت هذه المزارع تحتوى على عددٍ من الحمير الوحشية[1] وغيرها من الحيوانات. وحينما أجبته بأنكما يا سيدىَّ تمتلكان مزارع بها حيوانات، ولكن ليس بها حمير وحشية، قال : «سآخذك فى جولة داخل مزرعتنا (ص٤٦٠) وستفاجأ عند رؤية سعتها وستندهش عند رؤية الحمير المتوحشة بها». وتقدمنى ليدخل بى إلى مزرعةٍ كبيرةٍ ذات أرضية وعرة وذات أشجار مثمرة، غير أنها لا تسر الناظر إليها؛ وأثناء ما كنت أمتطى دابتى على الطريق مرتديًا قبعتى رآنى مستشار القصر [ليو فوقاس] من على بُعدٍ كبير، وبسرعةٍ شديدةٍ أرسل لى ولده ليقول لى أنه من الخطأ أن يرتدى أى شخص قبعته أثناء تواجد الإمبراطور فى نفس المكان، إنما يجب علىَّ أن أرتدى غطاءً للرأس teristra[2] فأجبت : «إن السيدات لدينا يرتدين قبعات وطُرح

---

[1] ربما كان أمر امتلاك الحمير الوحشية له مغزاه بيد أن التقرير لم يكشف عن ذلك المغزى.

[2] هو نوع من أغطية الرأس المتدلية بعض الشيء على الظهر.

والرجال يركبون الدواب مرتدين قبعاتهم. ولا يحق لك أن تجبرني هنا على تغيير عادات مدينتي، مع الأخذ في الاعتبار أننا نسمح للزوّار القادمين من بلادكم بالمحافظة على عادات مدنهم[1]، حيث أنهم يرتدون ملابس ذات أكمامٍ طويلةٍ، ومزركشةٍ ومتعددة الأحزمة، وشعرهم طويل، والملابس التي يرتدونها طويلة حتى أنها تبلغ كاحل القدم، وهم يمتطون الدواب ويمشون ويجلسون إلى المائدة معنا؛ ويقومون بأعمالٍ تبدو لنا مشينة، فقد كانوا يقبّلون أيدي أباطرتنا من تلقاء أنفسهم، وهم لا يرتدون أي غطاء للرأس»

وقلت لنفسي: «ربما لا يريد الرب أن يظل هذا الوضع قائمًا لفترة أطول».

فقال : «إذن يجب عليك أن تعود أدراجك».

وحين نفذت ما طلبوه مني تقابلنا وقمنا برعي الماعز سويًا، وهي ما يطلقون عليها اسم الحمير المتوحشة[2]. لكنني تساءلت لماذا هي عندكم متوحشة؟ فإن حميرنا الأليفة في كرمونا مثلها تمامًا، فألوانهم وأشكالهم وآذانهم متشابهة، وهي تُصدر أصواتًا ذات نغمةٍ معينة حينما تبدأ في النهيق، وكانت أحجامهم متشابهة وتجري بالسرعة نفسها، وبالمثل فقد كانت تحصل على أفضل أنواع الأطعمة، ولذا فهي تعد وجبة شهية بالنسب للذئاب. وحينما رأيتهاتوجهت إلى الرجل اليوناني الذي كان يمتطي دابته إلى جوار دابتي وقلت له : «لم أرَ شبيهًا لها قط في سكسونيا»، فردَّ عليَّ قائلاً : «إذا أصبح سيدك صديقًا مقربًا من الإمبراطور المقدس [نقفور]، فسيقدم له العديد منها؛ ولن يكون الأمر بالشرف القليل بالنسبة له إذا

(1) يلاحظ أن السفير تناول في هذا الموضع جانبًا من البروتوكول المعروف في الدبلوماسية الأوربية في القرن العاشر الميلادي.

(2) لايزال ليوتبراند يسخر مما رآه في القسطنطينية حتى شمل بسخريته الحيوانات فاستخف بها.

امتلك ما لم يره أعظم أسلافه من قبل». [فرد ليوتبراند] لكن صدقني إن سيديَّ المبجلين [أوتو وأوتو] وأخي زميلي الأسقف السيد أنتوني [أف بريكسن] Antony [of Brixen][1] يكون في استطاعتهم إمداده ببعض الحيوانات التي لا تندرج تحت فصيلة الحيوانات الوضيعة، وهذا ما تشهد به أسواق كرمونا، وهناك فإن هذه الحيوانات لا تعد حميرًا متوحشة إنما حميرًا أليفة. ولكن حينما قام الرجل الذي تولى حراستي بإبلاغ نقفور عباراتي السابقة بشكلٍ مغلوطٍ وسيءٍ، أرسل إليَّ عنزتين وصرّح لي بالرحيل. وفي اليوم التالي اتجه بنفسه صوب سوريا.

كتب النبوءات والسياسة :

لكن فلنلاحظ الآن لماذا قاد جيشه ضد الخراسانيين. وكان لدى اليونانيين والمسلمين[2] عدد من الكتب أطلقوا عليها اسم رؤى دانيال Visions of Daniel؛ ويمكن لي أن أطلقها عليها اسم كتب (ص٤٦١) السبيليين Sibylline[3] وتذكر هذه الكتب عدد السنوات التي سيعيشها كل إمبراطور؛ وتتناول الظروف التي تخص السلام أو الحرب والتي تحدث خلال

---

[1] اكتفى الناشر هندرسن بالإشارة إلى كنية الأسقف أنتوني على هذا النحو، وبقي من الصعب الاستدلال على المزيد عن شخصيته.

[2] وردت هذه الكلمة في النص الإنجليزي Saracens ويظن أن هناك لبسًا، إذ أن Saracens أي المسلمين لهم كتابهم وهو القرآن الكريم وعليه يرجح أن يكون المقصود هم السريان من المسيحيين الشرقيين.

[3] ينسب هذا المسمى القديم في غالب الأمر إلى سيبيلا Sibylla التي قيل عنها إنها هي التي ألفت الكتب المعروفة باسم السبيليين وكانت أسرة ممن عرفوا باسم التركوانيين Tarquin المنتسبة إليها مدينة تركويني القديمة Tarquinii قد اشترت هذه الكتب من امرأة عجوز وتم حفظها في العاصمة ليُرجع إليها في أوقات الخطر للإفادة منها. راجع :

Simpson, D.P., Op. Cit., p.p. 553 - 599.

سنوات حكم كل إمبراطور منهم؛ وعن الثروات التي سيحصل عليها المسلمون، أو العكس. وهكذا نعلم أنه في عهد نقفور لن يتمكن الخراسانيون من مقوامة اليونانيين وأن نقفور لن يعيش سوى سبع سنوات فقط، وبعد وفاته سيعتلي العرش إمبراطورٌ سيحكم البلاد بصورةٍ أسوأ منه – وإن كنت أعتقد أنه لا يوجد من هو أسوأ– غير أنه لن يضاهيه في مجال خوض الحروب؛ وفي عهده نفسه سيمتد نفوذ الخراسانيين، لدرجة أنهم سيستولون على كل الأقاليم حتى خلقدونيا، علمًا بأن هذا الإقليم لا يبعد كثيرًا عن القسطنطينية. وكان أهالي الشعبين يحترمون المناسبات الدينية لدى الطرف الآخر، ولهذا السبب، أكمل اليونانيون مسيرتهم بحماسٍ في الوقت الذى لم يحاول المسلمون اليائسون المقاومة مطلقًا؛ إنما انتظروا الوقت الذى سيستطيعون فيه المضى قُدُمًا ضدهم والذى لن يتمكن خلاله اليونانيون من المقاومة.

لقد كتب هيبوليتوس Hippolytus[1] وهو أسقف صقلي كتابًا مشابهًا للعمل السابق[2] وتحدث فيه عن إمبراطوريتكما وعن شعبنا، وأقصد

---

[1] لم يتمكن الباحث من الكشف عن هذه الشخصية إلا أن السياق يشير إلى أنه كان أديبًا مرموقًا، استخدم الرمز فى كتاباته وقد كتب فى النبوءات.

[2] المقصود بالعمل السابق الإشارة إلى كتب السبيلين فى النبوءات أو بصفةٍ عامةٍ ففى تقييم للأدب البيزنطى فترة القرن العاشر الميلادى، يذكر أحد المؤرخين الحديثين أن آداب وعلوم القرن العاشر فى بيزنطة لا تمثل حركة ابتكار بقدر ما تمثل نقل للمؤلفات الهيلينية السابقة. راجع :

Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 292.

وهناك دارس آخر يؤكد ذلك فيذكر أن أقصى ما كان يصبو إليه أغلبية المؤلفين البيزنطيين هو محاكاة أشهر المؤلفين الإغريق فى كتاباتهم، ومثلما كان أسلوبهم يحاكى الشكل القديم، كان فكرهم أيضًا يذوب فى الأفكار الكلاسيكية. انظر :

Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 266.=

بشعبنا كل هؤلاء الخاضعين تحت لواء حكمكما وإنى أعتقد أن ما تنبأ به [هيبوليتوس] بشأن ما يحدث فى الوقت الحالى كان حقيقيًا. وبدءًا من هذه اللحظة التى نعيشها غدت الوقائع الأخرى تحدث كما أنبأ بها، وحسبما سمعت من هؤلاء الذين اطلعوا على هذه الكتابات. وسأذكر إحدى المقولات العديدة التى أوردها هذا الأسقف حيث قال الآتى : «إن الأسد وولده سوف يسحقان معًا الحمار الوحشى». وقد قام اليونانيون بترجمة هذه الجملة كالآتى : إن ليو[1] -وهو إمبراطور الرومان أو اليونانيين- وولده -ملك الفرنجة- سيقومان معًا فى يومٍ ما بطرد الحمار الوحشى -وهو ملك المسلمين الإفريقى[2]. ومن وجهة نظرى، لا أعتقد أن مثل هذه الترجمة هى الترجمة الصحيحة للسبب التالى؛ إذ أن الأسد وولده بالرغم من اختلاف

= وهكذا نجح ليوتبراند فى الربط والمقارنة بين أدب هيبوليتوس فى كتابة النبوءات وبين كتب السبيليين فى النبوءات وهى التى يمكن اعتبارها لونًا من الأدب الكلاسيكى.

[1] لم يرد فى قائمة الأباطرة البيزنطيين ذكرًا لإمبراطور يحمل اسم ليو خلال فترة حكم أوتو الكبير بدايةً من ٩٣٦م وحتى تدوين ليوتبراند لتقريره. ونظرًا لبروز شخصية ليو فوقاس كقائد ثم أخٍ لإمبراطور ورئيس للقصر أثناء تلك الفترة، فيعتقد أنه هو ليو المشار إليه فى هذا الموضع بعد أن خلع عليه اللقب الإمبراطورى بشكل مجازى. كذلك يستبعد أن يكون هو الإمبراطور ليو الحكيم (٨٨٦ - ٩١٢م) لعدم معاصرته للأحداث، كما أن ملك الفرنج المعاصر له لم يكن من القوة التى يمكنه بها تمثيل الإمبراطورية فى الغرب الأوربى فى التحالف المشار إليه أعلاه.

[2] المقصود به القوة الفاطمية التى دانت لها إفريقية وخلفت دولة الأغالبة فى سيادتها على الشمال الأفريقى وصقلية وأجزاء من إيطاليا الجنوبية، وكان الخليفة الفاطمى المعاصر هو المعز لدين الله الفاطمى (٩٥٢-٩٧٦م / ٣٤١ - ٣٦٥هـ) الذى دعم سلطانه بغزو مصر وتطلعاته إلى الشام وكان المسلمون قد ظهروا لأول مرة فى جنوب إيطاليا سنة ٨٣٧م / ٢٢٣هـ عندما استعان بهم أهل نابلى ضد دوق بنفنتو وأخذوا يشكلون تهديدًا خطيرًا ومباشرًا للأقاليم البيزنطية فى شبه جزيرة إيطاليا وفى صقلية بل وفى البلقان ذاتها، وبلغت تهديداتهم إلى أن أغاروا على مدينة روما. وعادةً ما يطلق على المسلمين المهاجرين اسم الأفارقة لخروجهم من أفريقيا (تونس). انظر : حسنين محمد ربيع : المرجع السابق، ص١٥٣.

حجميهما إلا أنهما ينتميان إلى طبيعةٍ واحدةٍ بل ينتمين إلى السلالة أو النوع ذاته، ووفقًا لمعرفة ما إذا كان الأسد هو إمبراطور اليونان، فلا يمكن التصديق على أن ولد الأسد يجب أن يكون ملك الفرنجة. فالبرغم من كون الإثنين من الرجال، كما أن الأسد وولده من الحيوانات، إلا أنهما مازالا يختلفان في العادات إلى حدٍ بعيدٍ -لن أقول من نوعيةٍ إلى نوعيةٍ أخرى- لكن من أشخاصٍ عُقلاءٍ إلى أشخاص لا يتصفون بالعقلانية. إن ولد الأسد يختلف عن الأسد في العمر فقط؛ أما الشكل فهو واحد، كما يتصف الإثنان بالشراسة نفسها (ص٤٦٢) والزئير نفسه[1]. فإن ملك اليونان يضع على رأسه شعر طويل، ويرتدي رداء التُنِك طويل الكمين، وقبعة، وهو يكذب بدهاء، ليس لديه رحمة، ويحتال كالذئب، ومختال، ومتواضع بصورةٍ زائفة، وقذر وجشع، يعيش على الثوم والبصل والكُراث ويشرب من مياه الغُسل. وعلى العكس من ذلك، فإن ملك الفرنجة بهيّ الطلعة؛ يرتدي ثوبًا لا يشبه مطلقًا ملابس النساء، وقبعة، ويتسم بالصدق دون الغدر، وهو رحيم بدرجةٍ كافيةٍ في جانب الحق، وقاسي عند الضرورة، ومتواضع بصدق في كل الأحوال، وهو لم يكن قذرًا مطلقًا، ولم يكن يأكل الثوم ولا البصل ولا الكُراث، كما كان يقتصد في أكله للحوم الحيوانات، لكنه كان يبيعها بهدف جمع المال. ولقد سمعت[2] الفرق بينهما، ومن هنا لا يمكن تقبل الترجمة السابقة، حيث أنها تنبئ بالمستقبل كما أنها غير صحيحة. لذلك فمن المستحيل أن يكون نقفور

---

[1] يُلاحَظ استخدام ليوتبراند للمنطق في تفنيده للمقولات المشار إليها أعلاه، وهذا يشير إلى تنوع ثقافته.

[2] لايزال الحديث موجهًا إلى أوتو والبلاط الألماني، والمقارنة التي عقدها ليوتبراند مفعمة بالعبارات القاسية فيما يخص الإمبراطور البيزنطي بينما كان الإمبراطور الألماني في نظره على العكس من ذلك، مما يؤكد عدم حيدة السفير.

هو الأسد وأوتو هو ولد الأسد كما ادعوا كذبًا، وأنهما سيقومان معًا بسحق أى شخص لأنهما «سيحدثان بسرعة تغييرًا فى تخومهما عن طريق مبادلة الأرض فيما بينهما، بحيث يصل البارثيون Parthians[١] إلى نهر أرارس Araris[٢] ويشربون منه، بينما يشرب الألمان من نهر دجلة Tigris[٣]. وسيصبح نقفور وأوتو صديقين وسيعقدان اتفاقية فيما بينهما».

لقد سمعت ترجمة أهل اليونان، ولنسمع الآن الترجمة التى ذكرها ليوتبراند أسقف كرمونا. لذلك أقول، ولذلك السبب فقط أقول؛ بل أؤكد أنه إذا ما سلمنا بصدق النبوءة واكتملت أحداثها فى الوقت الحاضر فإن الأسد وولده هما الأب والابن أوتو وأوتو لا يختلفان عن بعضهما البعض إلا فى العمر، وسيقوم الاثنان معًا بسحق الحمار الوحشى نقفور فى هذه الأيام؛ الذى ليس من المستغرب مقارنته بالحمار الوحشى نظرًا لأنه إنسان تافه لا

---

[١] البارثيون ينسبون إلى ولاية بارثيا Parthia القديمة وهى تقع فى شمال شرق إيران، وقد تعددت الآراء حول أصولهم التاريخية. نجحوا فى تأسيس دولة لهم فى عام ٢٤٩ق.م تحت قيادة أرسق Arsaces فعرفت بالدولة الأرسقية التى توسعت على حساب جيرانها، فامتدت من بحر قزوين شمالاً حتى الخليج العربى جنوبًا، ودخلت فى حروب طويلة مع أرمينيا والإمبراطورية الرومانية، ونجحت فى إحراز انتصارات عديدة على الرومان بفضل خيَّالتها الخفيفة والثقيلة التى كانت تتقن فن الرماية. واستمرت الدولة حتى أزيلت بعد خمسة قرون فى عام ٢٢٦م على يد أردشير بن بابك أحد ملوك ولاية فارس. ولمعرفة المزيد راجع :

Encyclopedia Americana, International Edition, 30 vols, New York, 1976, Art. Parthia.

ويلاحظ أن الدولة البويهية (٩٤٥ – ١٠٥٥م) تعد وريثة للبارثيين على هذه الأرض، ومن ثم تكون هى التى عاصرت الأحداث المشار إليها أعلاه.

[٢] يقع نهر أرارس فى بلاد الغال، وهو معروف أيضًا باسم نهر الساؤون.

Simpson, D.P., Op. Cit., p.54.

[٣] وهو النهر الشهير فى بلاد الرافدين حيث كان البارثيون يعيشون قديمًا.

Ibid., p. 605.

قيمة له فضلاً عن كآبته، وكذلك نظرًا لزواجه الباطل من أمه بالعماد[1] بالتبعية وعشيقته[2]. وإذا لم يقم الأسد وولده أوتو وأوتو –الأب والابن– الإمبراطوران الرومانيان العظيمان بسحق الحمار الوحشي، فإن ما كتبه هيبوليتوس لن يكون صحيحًا بالمرة، حيث أن الترجمة السابقة لليونانيين يجب طرحها جانبًا كليةً. لكن المجد ليسوع الرب الأبدى، فإن كلمة الأب –الذى يتحدث إلينا مثلنا، ليس بالصوت لكن بالإلهام– تجعلك [يا سيدى أوتو] تتمنى أن لا ترى فى هذه الجملة تفسيرًا مغايرًا لتفسيرى؛ ذلك أن الأسد وولده لا ينبغى لهما إلا القضاء على الحمار الوحشى وإخضاعه، وعليه فليحسم الأمر نهائيًا بأن ينزوى [نقفور] جانبًا فى سياسته، شأنه شأن سيديه (ص٤٦٣) الإمبراطورين بازيل Basilius وقسطنطين[3]، ولتُحفظ روحه عند الرب حتى يوم القيامة !

---

[1] وهى الأشبينة فى السريانية وفى العربية العراب؛ وكلما تذكرنا العراب، طاف بذهننا الكبار المسئولون عن الأطفال لكن الوضع لم يكن كذلك فى الكنيسة الأولى. يعد العراب، بالنسبة للصغار، مسئولاً عن تربية ابنه فى المعمودية. لكن بالنسبة للكبار يعتبر العراب المعلم الكنسى الروحى المهتم بتعلم ابنه. وقد منعت قوانين الإمبراطور جستنيان زواج العراب من ابنه أو ابنيه تأكيدًا للقرابة الروحية. ولمعرفة المزيد راجع : جورج حبيب بباوى : المعمودية فى الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية (دراسة للعقيدة والطقس فى القرون الخمسة الأولى)، الكتاب الأول، نشر : الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، الإسكندرية (د.ت). ولما كانت ثيوفانو زوجًا للإمبراطور رومانوس الثانى ولى نعمة نقفور وسببًا فى توليته العرش، يصبح من الواضح أن ليوتيراند وضعها فى مرتبة العراب رغم أن نقفور كان يكبرها فى العمر.

[2] رفض بوليوكتس بطريرك القسطنطينية فى بادئ الأمر زواج نقفور من ثيوفانو واعتبره زواجًا محرمًا وفقًا للقواعد الكنسية الأرثوذكسية نظرًا لأن هذا هو الزواج الثانى بالنسبة له. ومنع البطريرك نقفور من استكمال الطقوس الخاصة بزواج الذين يحملون اللقب الإمبراطورى بسيلوس Baslieus فحظر عليه اجتياز البوابة الوسطى المقدسة إيكونوستاز Iconostase وتقبيل مائدة الأضاحى المقدسة فى الكنيسة الجديدة Nouvelle Eglise لمدة عام عقابًا له، مما أثار غضب نقفور إلا أن المؤرخ شلومبرجيه امتدح البطريرك فى موقفه لتمسكه بقواعد الأرثوذكسية. انظر المزيد من التفاصيل فى :
Schlumberger, G., Op. Cit., p.p. 370-2.

[3] وهما الإمبراطوران بازيل الأول وقسطنطين السابع.

[ثم استأنف ليوتبراند حديثه:] بيد أن المنجمين تنبأوا بما يضاهي تفسيرى فيما يتعلق بكم وبنقفور. وأنا أعتقد أنه شىءٌ مذهل، حين تحدثت مع أحد المنجمين الذى شرح لى تفصيليًا هيئتك وعاداتك [يا سيدى أوتو] إذ وصفك يا أكثر الأسياد صيتًا وكذلك الذين يحملون اسمك العظيم، أولئك الذين ارتبطت بهم بعلاقات وتعاملت معهم آنفًا، الذين قام بوصفهم وكأنهم ماثلين أمامه. وما من أحد من أصدقائى أو أعدائى الذين وردوا على بالى سواء الذين ذكرتُهم أم لم أذكرهم إلا وأخبرنى بشكلهم وهيئتهم وطبيعة شخصياتهم. ولقد تنبأ بكل الكوارث التى حدثت لى بالفعل خلال رحلتى هذه. لكنى كنت أتمنى حينها أن يكون كل ما ذكره لى هذا المنجم كذبًا، وفقط كنت أدعو بأن يكون هناك شىءٌ واحدٌ صواب ألا وهو أن يحدث ما تنبأ به بشأن نقفور فيا ليت هذا الأمر يتحقق ! يا ليت هذا الأمر يتحقق ! وحينئذٍ سأشعر بأن كل ما عانيته من مشاكل لا قيمة لها مطلقًا.

كان هيبوليتوس المذكور سلفًا قد كتب أيضًا أن الفرنجة وليس اليونانيون هم الذين سيضعون نهايةً للمسلمين [الفاطميين][1] حيث قالت النبوءة أن المسلمين خاضوا حربًا قبل ثلاث سنوات بالقرب من سكيلا Scylla وشاريبدس Charybdis فى مياه صقلية[2]، مع الشريف الرومانى

---

(1) يلاحظ أن ليوتبراند أشار إلى المسلمين الفاطميين بمسمى Saracens فى حين كان قد أشار إلى المسلمين فى موضع سابق بمسمى Assyrians وهم الخراسانيون وفى ذلك ما يشهد له بقدرته على التمييز بين مسلمى الغرب ومسلمى الشرق.

(2) سكيلا صخرة معروفة عند مدخل المضيق البحرى الواقع بين شبه الجزيرة الإيطالية وجزيرة صقلية، وهو مضيق مسينا Messina. أما مسمى شاريدس فهو اسم دوامة عادةً ما تحدث قبالة منطقة شاريدس القريبة فحملت المسمى نفسه.

Simpson, D.P., Op. Cit., p.p. 102, 540.

مانويل [فوقاس] Manuel، ابن أخ نقفور[١] ، وعندما لم يتمكنوا من تقدير حجم قواته أخذوه وضربوا عنقه ثم علقوا جثته، وحينما ألقوا القبض على زميله وصديقه، الذى كان مخنثًا، قرروا التمثيل به بعد قتله؛ ولكنهم اكتفوا بتوثيقه وتعذيبه وحبسه مدة طويلة فى السجن[٢] ، ثم باعوه بسعرٍ لا يمكن أن يدفعه أى شخص عاقل. وبناءً على نفس هذه النبوءة، تقابلوا بعد فترة مع القائد[٣] إجزاشونتس Exachontes وحينما تحاربوا معه، قاموا بتدمير جيشه بكل ما أوتى لهم من سبل[٤] .

---

[١] هو مانويل ابن الدمستق (القائد ليو فوقاس) الذى اشتهر بالنشاط والشجاعة، ورغم ذلك فإنه على حد وصف بعض المؤرخين لم يكن كفءًا ليتحمل مسئولية هذه الحملة الضخمة لصغر سنه وشدة عناده وتجرده من الرزانة والتعقل. انظر : ابن الأثير : المصدر السابق، ج٨، ص٥٥٧.
Schlumberger, G., Op. cit., p. 443.

[٢] الشخص الذى أسره الفاطميون واحتجزوه لمدة عامين هو الطواشى نيكيتاس Nicetas شقيق ميخائيل حاجب الإمبراطور نقفور الذى اشتهر بالتقوى الشديدة والثقافة الواسعة فى أمور الكنيسة، وفى مدينة المهدية حيث سجن، عكف على نسخ بعض العظات والمؤلفات، ومنها مؤلفات القديس يوحنا الفم الذهبى. انظر :
Ibid., p.p. 445, 462.

[٣] حمل أميرال البحرية البيزنطية الكبير فى عصر نقفور الثانى لقب شيتونيت chitonite أو شومبلين chambellan راجع :
Ibid., p. 51.

[٤] لعل القائد المذكور هو نفسه القائد نقفور الأسقف الذى عينه الإمبراطور نقفور مستشارًا له، والذى تولى حكم الثغور الإيطالية نائبًا عنه، كان قد التحق بالحملة على أنه رئيس رجال الدين. وكانت الحملة قد ضمت عددًا كبيرًا من السفن البيزنطية إضافة إلى نحو أربعين ألف جندى، ولم يكن استعداد المسلمين للحرب بأقل شأنًا من استعداد البيزنطيين، وعند مضيق مسينا دارت معارك بحرية وبرية طاحنة فى شهر أكتوبر ٩٦٥م / ذى الحجة ٣٥٤هـ، فانهزم البيزنطيون هزيمةً منكرةً على يد أسطول صقلى فاطمى، ذلك أن المسلمين استخدموا الخطاطيف وما يشبه النار الإغريقية فهلك ما لا يقل عن عشرة آلاف من البيزنطيين، ولم يحفل المسلمون بأن يأخذوا كل الأسرى، وتمكنوا من فتح مُجمل صقلية، وقد عُرفت هذه الواقعة فى المصادر الإسلامية بواقعة المجاز. وبعد حوالى عامين عقد الصلح بين الطرفين، مما أتاح للفاطميين فرصة فتح مصر ٩٦٩م / ٣٥٨هـ، ولمعرفة المزيد عن هذه الأحداث راجع :
Cedrenus, Op. Cit., II, p.p. 353 - 60. =

خروج نقفور مرة أخرى لقتال المسلمين وهجوم أوتو على مدينة بارى :

برز سببٌ آخر دفع نقفور إلى قيادة جيشه ضد الخراسانيين فى هذا الوقت. على أن الرب أنزل مجاعةً خلال هذه الفترة، نجم عنها الخراب فى كل أراضى اليونان، حتى أن اثنين من السكستار البافى Pavian Sextares[1] لا تصل قيمة شرائهما أكثر من قطعةٍ ذهبية. وقد زادت الفئران الطين بلة وأضافت مزيدًا من الشدة حتى نال منها الحقل ذو الخصوبة العالية، وقام نقفور بمضاعفة سوء الحظ حينما جمع كل الذرة الموجودة فى كل مكان خلال موسم الحصاد؛ وأعطى (ص٤٦٤) ثمنًا بخسًا للمُلاَّك البائسين، خاصة حين علم بوجود محصول وفير من الحبوب فى بلاد الجزيرة إذ أن الحقول هناك بمنأى عن الفئران؛ فقد كانت كمية الذرة الموجودة فى هذه المنطقة تساوى عدد حبات رمال البحر. علاوةً على ذلك، حينما تفشت المجاعة بشكلٍ قاسٍ ومؤسفٍ فى كل مكان، فقد أحضر ثمانين ألف رجلٍ لإنجاز عمله الدنىء بحجة القيام بغزوٍ عسكرى؛ وبينما كانوا لا يجدون ما يأكلون باع لهم ما كان قد اشتراه بقطعةٍ ذهبية واحدة مقابل قطعتين ذهبيتين. وتلك يا سيدى كانت الأسباب التى أجبرت نقفور الآن على قيادة قواته ضد الخراسانيين[2]. ولكنى أتساءل أية قوات تلك؟

= ابن الأثير : المصدر السابق، ج٨، ص٥٤٣ - ٤، ٥٥٦-٨؛ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص٤٩٠ - ٦؛ السيد عبد العزيز سالم : البحرية المصرية فى العصر الفاطمى، نشر فى : تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٣، ص٤٦٢.

(١) لعلها عملة السيستيرتيوس Sestertius وهى عملة رومانية تساوى ربع دينار رومانى وتساوى اثنين ونصف آس As رومانى. راجع
Simpson, D. P., Op. Cit., p. 551.

(٢) صورة أخرى من السخرية الحادة التى عودنا عليها ليوتبراند يقلل بها من شأن الإمبرطور البيزنطى ومن مشاريعه الحربية.

وأجيب بصدق إنهم ليسوا رجالاً إنما هم مجموعة من أناس على هيئة رجال، لا يملكون سوى اللسان الجرىء، أما ساعدهم الأيمن فكان لا حراك له في الحرب. ذلك أن نقفور لم يكن يبحث عن مقومات معينة فيهم، إنما كان يهمه العدد، فكم كان هذا الأمر يشكل خطرًا عليه، ولسوف يدرك عاقبة ذلك ويندم حين تلحق الهزيمة بهذا العدد الضخم من الجنود الذين لا يقبلون على القتال، أما قدر الشجاعة التى تملكتهم فلم تكن إلا بفضل كثرة عددهم[1] وستقع هذه الهزيمة على يد حفنة من رجالنا المهرة فى فنون الحرب -بل المتعطشين لها.

وبينما كنتم تحاصرون بارى[2]، تمكن ثلاثمائة فقط من العناصر الهنغارية Hungarians[3] من اعتقال خمسمائة يونانى بالقرب من سالونيك

---

(1) من الواضح أن تقييم لوتبراند للجيش البيزنطى وكفاءته القتالية على هذا النحو ما هو إلا محض افتراء، ذلك أنه يناقض واقع الانتصارات التى أحرزها هذا الجيش، إضافة إلى أنه يتعارض مع تقييم المؤرخين المعاصرين له، وهذا ما أكدته دراسة حديثة اهتمت بإبراز القدرات الحربية للجيش وأدواته وتشكيله وقيادته. راجع ذلك فى : وسام عبد العزيز فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية (٣٢٤ - ١٠٢٥م)، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص٢٧٠-٨٧، ص٣٤١ هـ٣٨، ص٣٤٤ هـ٥٥. كما ذكرت دراسة أخرى العناصر العديدة التى كان يتألف منها الجيش البيزنطى، وأنهم كانوا قد اشتركوا فى صفاتٍ مثل : الشجاعة وشدة البأس فى القتال، وقد عملوا بصفتهم مرتزقة فى الجيش، كما تم ضمهم بعد أن وقعوا فى الأسر، ومن تلك العناصر : السلاف، الدلماشيون، والمردة الذين انحدروا من أصولٍ شاميةٍ بوليسيةٍ Pauliciens، مع احتمال انضمام بعض البنادقة والأمالفيين إلى هؤلاء المتبربرين. انظر :

Schlumberger, G., Op. Cit., p.p. 50-51.

(2) يبدو أن أوتو الكبير قد أدرك أن آماله الخاصة بعقد حلٍ سِلمى حول تخلى القسطنطينية عن الجنوب الإيطالى قد تلاشت بسبب تأخر سفيره ليوتبراند فى العودة، فلجأ للسيف لطرد البيزنطيين فتوجه من روما إلى الجنوب، فاتجه إلى كلابريا عن طريق ساحل البحر الأدرياتى واحتفل مع جنده بأعياد الميلاد فى (٢٥ ديسمبر ٩٦٨م) هناك. وها هو ليوتبراند يضيف أن حصار بارى كان بهدف الضغط على نقفور. راجع:

Ibid, p.p. 666 - 7.

(3) الهنغاريون : هم شعب المجيار، ينتمون إلى العناصر الآسيوية المغولية، وقد اقتفوا أثر الأفار حتى وصلوا إلى وادى الدانوب الأوسط، كما تعقبوا البلغاريين فألقوهم فيما وراء النهر. والثابت أنهم قدموا إلى=

Thessalonica[1] وقادوهم إلى بلاد هنغاريا Hungary[2]. وفي خطوةٍ تاليةٍ، قاموا بإقناع مائتين من الهنغاريين في مقدونيا، ليس بعيدًا عن القسطنطينية بأن يحذوا حذوهم؛ وعندما تقهقروا في غفلةٍ خلال ممرٍ ضيق، تم الإمساك بأربعين فردًا منهم. إلا أن نقفور قام بإطلاق سراحهم، وزينهم –بأغلى أنواع الزينة والملابس، وجعل منهم حراسه الشخصيين والمدافعين عنه– واصطحبهم معه خلال حملته على الخراسانيين. لكن ما هي نوعية هذا الجيش ؟ ويمكننا أن نستخلص من هنا أن هؤلاء الذين كانوا يرأسون باقي الجند هم بنادقة Venetians وأمالفيين Amalfians ![3].

– تلك الجهات بدعوة من الإمبراطور ليو السادس، ويعتبر الهنغاريون من أمهر الشعوب في ركوب الخيل، مما أضفى عليهم صفة القوة وشدة البأس والسرعة في الحركة والبراعة في الرمي، وسببوا إزعاجًا شديدًا للإمبراطوريتين البيزنطية والرومانية المقدسة؛ إذ كان في مقدورهم تشكيل جيش ساحق من أكثر من مائتي ألف فارس. وقد ظلت الإمبراطورية البيزنطية في منأى عن هذا الخطر طيلة فترة حكم نقفور الثاني. راجع:

Ibid, p. 343.

السيد الباز العريني : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص٣٦٨ – ٩.

[1] مدينة صغيرة في مقدونيا وهي تعرف حاليًا باسم سالونيكي Thessaloniki.

Simpson, D.P., Op. Cit., p. 602.

[2] هي البلاد التي استقرت فيها العناصر المجرية بعد هزيمتهم في معركة أوجزبرج على يد أوتو الكبير، ومن ثم عُرفوا بالهنغاريين. ولم يظهروا كقوةٍ مستقلة فعالة إلا عند أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بعد أن تأسست لهم دولةٌ قوية امتدت حتى شواطئ البحر الأدرياتي. انظر :

Vasiliev, A.A., Op. Cit., p.p. 388 - 9.

ويتضح من رواية ليوتبراند أن الهنغاريين استُخدِموا في الأعمال الحربية بصفتهم مرتزقة بعد أن انخرط بعضهم في الجيش البيزنطي.

[3] هنا يؤكد ليوتبراند على أن الجيش البيزنطي ضم عناصر من البنادقة والأمالفيين بيد أنه أظهرهم في مكانة أعلى حين جعل منهم القادة والرؤساء، ربما بحكم الانتماء للوطن الواحد (إيطاليا) وكانت دراساتٌ أخرى قد أثبتت أنهم عملوا كمرتزقة بالجيش. انظر :

Bailly, Auguste, op. Cit., p. 280

السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية، ص٤٣٥ – ٦.

البطش برسولي بابا روما وتردي العلاقة معه :

لكن فلنكتفي بهذا القدر [من الحديث عن اليونانيين وإمبراطورهم] ! ولتعلم الآن ما حدث لي. في اليوم السادس قبل غرة أغسطس [السابع والعشرين من يوليو] وفي أمبريا خارج القسطنطينية، حصلت على تصريح من نقفور للعودة إليك، وحينما وصلت القسطنطينية أرسل النبيل المخصي كريستوفر كلمةً إليّ حيث أنه كان يمثل نقفور هناك، كان فحواها أن المسلمين في هذا الوقت تمكنوا من السيطرة على البحر أما الهنغاريون فكانوا يسيطرون على البر، ولذا فقد كان عليّ الانتظار حتى ينسحبوا فلم أستطع العودة. غير أن هذين الحدثين (ص٤٦٥) كانا مجرد شائعات ولم يكن لهما مجال من المصداقية [1] ! ثم تم تعيين مراقبين علينا لمنعي أنا ورفاقي دون الخروج من محل إقامتنا. فقد كانوا ينهبون ويذبحون أو يزجون بأفرادٍ من الجالية اللاتينية الفقيرة[2] إلى السجن، وقد جاءني بعض الأهالي من هذه المنطقة يطلبون الصدقات. كما لم يسمحوا لمترجمي اليوناني بالخروج ولا حتى لشراء متطلباتنا –لكنهم سمحوا بذلك فقط لطباخي الذي يجهل اللسان اليوناني، لدرجة أنه حينما كان يتوجه لشراء شيء فإنه لا يستطيع مخاطبة

---

[1] من الواضح أن الإمبراطور نقفور نفسه كان ور اء تلك الشائعات التي وصلت إلى مسامع السفارة بدليل أنه فرض قيودًا على أفرادها حتى لا يقفوا على حقائق الأمور إذا ما احتكوا بأشخاص خارج مكان إقامتهم. ذلك أن السياق العام لنص التقرير يعطي انطباعًا واضحًا على أن الإمبراطور كان لديه رغبة في تأخير السفارة عن العودة إلى ألمانيا.

[2] في استعراض لسكان القسطنطينية ذكرت المراجع أن العناصر اللاتينية كانت تشكل شريحةً مهمةً من بينهم، وأنهم كانوا يفدون إلى المدينة بغرض العمل جنودًا مرتزقة أو للاستمتاع بزيارتها. راجع :
Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 118.
وفضلاً عن أن اللاتين كانوا يشكلون شريحة من سكان القسطنطينية، فقد اعتاد تجارٌ لاتين جاءوا من البندقية وجنوب إيطاليا التردد على المدينة والتجول في أسواقها. انظر :
Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 272.

البائع سوى من خلال إشارات أصابعه أو إيماءات رأسه ولا يعرف كيفية التخاطب معه، حتى أنه يبتاع أشياءً بأربعة قطع من النقود، يستطيع المترجم شراءها هى نفسها بقطعةٍ نقديةٍ واحدةٍ فقط، وحينما يرسل لى بعض أصدقائى قدرًا من البهارات والخبز والنبيذ والتفاح، فإنهم يلقون بكل هذه الأشياء علي الأرض، ويضربون الرسل بقوةٍ وعنف، وليس لديهم رحمة حين كانوا يعدون لى مائدة فى مواجهة رجال تربصوا بى، ولعله كان عليَّ أن أتقبل فكرة الموت التى كانوا يخططون لها حيالى. غير أن شخصًا يدعى هو Ho أوعز لى مشفقًا عليَّ بأن هناك إصرارًا على استدراجى نظرًا لأنه توقع ما سأعانيه. وبالفعل فقد تعرضت لمخاطر جسيمة طوال إقامتى فى القسطنطينية على مدى مائة وعشرين يومًا وهى الفترة الممتدة من [يوم وصولى لها] اليوم الثانى قبل النون من شهر يونيو [الرابع من يونيو] حتى ستة أيام قبل النون من شهر أكتوبر [الثانى من أكتوبر].

ولكن إضافةً إلى ما أَلَمَّ بى من مصائب، بدا لى فى يوم عيد رفع مريم العذراء والدة الرب المقدسة إلى السماء The Assumption of the Virgin Mary [الخامس عشر من أغسطس] نذير شؤمٍ عليَّ، إذ حضر رسولان من طرف الحبر الأعظم البابا يوحنا[1]، طالبًا من نقفور [ملقبًا إياه] إمبراطور اليونانيين أن يُبرم معاهدةً ويرسى دعائم علاقة صداقة مستقرة وقوية مع ابنه الروحى المحبوب أوتو «إمبراطور الرومان المعظم». وقبل أن نطرح سؤالاً

[1] هو البابا يوحنا الثالث عشر الذى اعتلى كرسى البابوية (٩٦٥ - ٩٧٢م) كان رومانيًا نشأ نشأة دينية، وتدرج فى الوظائف الكنسية. تم انتخابه بعد ترشيح أوتو الكبير له، ولذا فكثيرًا ما احتمى به. وفى عام ٩٦٧م قام بتتويج أوتو الثانى إمبراطورًا شريكًا لأبيه فى الحكم، كما ساعده فى إتمام زواجه. وقد انتهت فترة تنصيبه بأن أودع فى السجن حتى اضطر أخيرًا للهروب. انظر :
Kelly, J.N.D., Op. Cit., p.p. 129-30; Duffy, Eamon, Op. Cit., p. 86.

يبدأ بـ"لماذا" –فإن هذه العبارة، بل إن هذا الأسلوب من المخاطبة آثم وفيه صلافة فى أعين اليونانيين، لم يستحق معه أن يدفع حاملها حياته ثمنًا لنقله إياها –إذًا فلماذا لم يمحها [حامل الرسالة] قبل أن تُقرأ ؟ وبالرغم من أننى أظهر نفسى دائمًا شخصًا له وضعه بصفتى داعيةً– نصرانيًا فضلاً عن أهليتى لأكون رئيسًا [لأعضاء السفارة] بفضل مقدرتى على التحدث إلا أننى أبدو الآن كسمكةٍ جامدةٍ ! إذ قام اليونانيون بشن هجومٍ بحرى عنيف [على السفينة التى كانت تقل الرسولين] وقاوموا الأمواج وتساءلوا طويلاً عن كيفية استطاعتهم تغيير مثل هذا الشر الذى لحق بهم أخيرًا، كما تساءلوا لماذا لم يبتلع البحر تلك السفينة فى أكثر مناطقه عمقًا ؟ وقال الجنود اليونانييون : «ألم يكن ذلك جديرًا بعدم اغتفاره أن يدعى الإمبراطور نقفور مجمل الرومان الجليل، المهيب بنقفور إمبراطور اليونانيين فقط، فجعلتموه متبربرًا وعالة[1] على الرومان؟». أيتها السماء ! أيتها الأرض ! أيها البحر ! (ص٤٦٦) غير أن هؤلاء الجنود قالوا : «ما الذى يمكننا فعله مع هذين الوغدين، هذين المجرمين ؟ إنهما عالة، فإذا ما قتلناهما، فإننا بذلك سنلوث أيدينا بالدماء الشريرة؛ فهما يرتديان ملابس رثة. كما أنهما عبدان من الفلاحين، وإذا قمنا بضربهما فإننا لا نهينهما لكننا نهين أنفسنا؛ حتى إنهما لا يستحقان أن يعذبا بمدرس الحنطة الرومانى. هل كان أحدهما أسقفًا والآخر نبيلاً ألمانيًا margrave!»[2]. وبعد ضربهما بالسياط، تم وضعهما

---

[1] يلاحظ أن ليوتبراند لم يشر إلى تَفَوُّه رسولى البابا يوحنا الثالث عشر بهذه الكلمات المستفزة للبيزنطيين، إلا أن السياق يشير إلى أن ذلك قد حدث منه أو من اللاتين عامة.

[2] ظهر لقب مرجريف جنبًا إلى جنب مع لقب الدوق فى الدولة الكارولنجية فى القرن الثامن الميلادى، وكان يحمله حاكم الإقطاعيات الفرنجية هناك، وكان هذا اللقب فى البداية مؤقتًا ثم غدا وراثيًا وقد–

بداخل أكياس، وذلك بعد قص لحيتهما وشعرهما ثم أُلقيا فـي البحر. غير أن الجند قالوا : «لربما لا يموتان وينعمان بالحياة؛ فأبقوا عليهما .وقـد وضعا في حبس ضيق إلى أن خارت قواهما، حتى نمى إلى علم الإمبراطور الرومـانى المقدس نقفور هذا العنف البشع».

وعندما علمت ذلك، اعتبرتهما سعيدين بفقرهما بينمـا أنـا تعيـس بثرائي. وحينما كنت في بيتي، كانت لدىّ رغبة جامحة في تبرير مـا أنـا فيـه من إحساسي بالفقر؛ لكن عندما كنت فى القسطنطينية علّمنى الخوف نفسـه أننى حصلت على ثروة كرويسوس Croesus[1] وكان الفقر يبدو دائمًا عبئًا ثقيلاً علىَّ، ثم أصبح شيئًا مقبولاً ومرغوبًا فيه؛ أجل، مرغوبًا فيه منذ اللحظة التى جنب فيها أنصاره من الموت، وحمى أتباعه من سلخ جلدهم أحياءً. وفى القسطنطينية دافع الفقر عن أنصاره، ويمكـن فـى مرحلـة تاليـة اعتبـاره أكفأ وأفضل مناضل ومدافع عنهم !

وعلى ذلك، فقد انجلى الأمـر بـأن زُج برسولَىْ البابـا فـى السـجن، حتى إنه تم إرسال رسالة إلى نقفور فى بلاد الجزيرة تشرح حاليهما فأزعجته، وعليه لم يجعل أى منهما يعود ليقدم ردًا حتى حلول اليوم الثانى قبل العَيْـدَس

-تم استحداثه كنظام بديل للنظام القبلى الذى كان سائدًا قبل تأسيس الإمبراطوريـة، وهـذا يعنى أنهـم كانوا بمثابة موظفين إمبراطوريين قاموا بإدارة إقطاعياتهم من خلال ما يشبه المكاتب.

Fichtenau, Heinrich, Op. Cit., p.p. 108 - 9.

[1] كرويسوس ملك ليديا Lydia إحدى ممالك آسيا الصغرى فى القرن السـادس ق.م (٥٦٠-٥٤٦ق.م) وقد حقق أقصى اتسـاع لمملكة ليديا وكان مشهورًا بثرائه العظيم وبذخه الشديد فصار مضرب المثل فى الثروة والجاه إلى أن قضى الفرس على مملكتـه واستولوا عليهـا عـام ٥٤٦ ق.م. واقـترن عنـد البعـض بقارون وثروته. سيد الناصرى : الإغريق تاريخهم وحضارتهم، القاهرة، ١٩٩٦م؛ محمد كـامل عيـاد : تاريخ اليونان، دمشق، ١٩٨٥م.

من شهر سبتمبر [الثانى عشر من سبتمبر] وفى هذا اليوم وصل الرد، لكن تم حجب مضمونه عنى. وبعد يومين -وتحديدًا فى اليوم الثامن عشر قبل غرة أكتوبر [الرابع عشر من سبتمبر] وصلنى الرد بفضل دعواتى وما بذلته من عطاءاتٍ وبناءً على ذلك، فكان علىَّ أن أستوثق بالحياة وأتمسك بها -فعودةً وخلاصًا- مستحضرًا الصليب. وهناك فى الحشد العظيم، قام بعض الأشخاص بالاقتراب منى دون أن يلاحظهم الحرس، وشدوا من أزر قلبى التعيس بكلماتٍ حانية طيبة[1].

موظفو الإدارة فى محاولة لإنقاذ الدبلوماسية البيزنطية وفشلهم :

لكن فى اليوم الخامس عشر قبل غرة أكتوبر [السابع عشر من سبتمبر] شعرت بأننى معلق ما بين الحياة والموت، حيث تم استدعائى للذهاب إلى القصر. وحينما وقفت أمام النبيل المخصى كريستوفر، استقبلنى بمنتهى الحفاوة، وقد طلب مقابلتى أنا وثلاثة أشخاص آخرين [من الأمراء][2] ، وقد بدأ حديثهم معى على النحو الآتى: «إن وجهك شاحب (ص٤٦٧) وتمكن الضعف من جسدك كله، وعلى العكس من عادتك فشعرك طويل ولحيتك متدلية، وهذا الأمر ينم عن شدة حزنك ومدى الأسى فى قلبك نظرًا لتأجيل موعد عودتك إلى سيدك. لكننا نرجوك ألا تغضب من الإمبراطور المقدس ولا منا. وعليه فلسوف نحيطك علمًا بسبب التأخير[3]. إن بابا روما -هذا

---

[1] لعل هذا الحشد كان من أبناء الجاليات الإيطالية المقيمة فى القسطنطينية.

[2] لم يُعرفهم ليوتبراند بأنهم من الأمراء إلا فى موضع لاحق فى تقريره، ولعلهم كانوا فى الوقت ذاته من كبار موظفى الإدارة فى البلاط البيزنطى.

[3] تذكر إحدى الدراسات أن تأخير عودة ليوتبراند كان بمثابة مخطط من قبل نقفور من أجل إيجاد متسع من الوقت كى يُنفذ حملة إلى إيطاليا قبل عقد السلام مع أوتو الكبير، وتؤكد الدراسة على أن ليوتبراند أدرك بنفسه هذه المماطلة فقرر العودة. راجع :

Vasiliev, A.A., Op. Cit., p.p. 328 - 9.

إذا ما كان يستحق الحصول على ذلك اللقب بالفعل – الذى اعتنق ملة مخالفة، فضلاً عن أنه شارك ابن ألبيرك[1] فى العمل الدنيء، ذلك الزانى المرتد وشخص بلا خلق، وقام بإرسال عدد من الرسائل إلى إمبراطورنا أكثر الأباطرة قداسة، وقد كان هو ذاته الأحرى بأن توجه إليه، إذ أن نقفور ليس جديرًا بما ورد فيها، ودعاه فى افتتاحيتها باسم إمبراطور "اليونان" وليس «الرومانيين». ودون أدنى شك، فإنه أقدم على مثل هذا الأمر عملاً بنصيحة سيدك [أوتو]».

قلت لنفسى : «ما الذى أسمعه ؟ إننى ضائع دون أدنى شك، لكن علىَّ أن أعرف سبيلى إلى أقصر طريق لأصل إلى رأىٍ محددٍ بعد جلسة نُحكِّم فيها العقل».

فاستطردوا قائلين : «إننا الآن نعلم أنك ستقول أن البابا هو أكثر الرجال سذاجة، ستقول هذا، ونحن متأكدون من ذلك». وأجبت : «لكننى لا أقول هذا».

[فقالوا] : «إذن لتستمع إلينا ! إن البابا السخيف الغبى لا يعرف أن قسطنطين [الكبير] المقدس نقل الصولجان الإمبراطورى ومجلس الشيوخ وكل طبقة الفرسان الرومانية إلى هنا، ولم يترك فى روما شيئًا خلفه سوى بعض

---

[1] بابا روما المشار إليه هنا هو البابا يوحنا الثانى عشر الذى كان ابنًا لألبريك الثانى الذى أمسك بحكم روما بيدٍ من حديد (٩٣٢ – ٩٥٤م) وبدوره كان ابنًا للأميرة ماروزيا Marozia أنجبته من النبيل ألبريك سيد كاميرينو Alberic of Camerino، انظر :

Tout, T.F., Op. Cit., period II, p.30; Kelly, J.N.D., Op. Cit., p.123.

وقد أضافت مراجع أخرى متخصصة فى تاريخ الكنيسة الغربية أن البابا يوحنا الحادى عشر قد عمق علاقته بالكنيسة الشرقية وحرص فى الوقت نفسه على إحكام السيطرة على الكنيسة الغربية. ويبدو أن خلفه يوحنا الثانى عشر قد سار على نفس النهج مما جعله عرضة لانتقادات ليوتبراند. انظر :

Duffy, Eamon, Op. Cit., p. 83.

العمال الوضيعين –الصيادين، والبائعين المتجولين وصائدى الطيور ومروضى الوحوش وطبقة العامة والعبيد– وإن البابا لم يكن ليكتب هذا إلا بإيعاز من ملكك[1]؛ وكم سيكون هذا الأمر خطيرًا على الطرفين[2] إلا إذا عادا إلى رشدهما، والمستقبل القريب سيبرهن على ذلك». فقلت : «لكن البابا الذى اشتهر بسذاجته ظن أنه كتب تشريفًا للإمبراطور [نقفور]، وليس إلحاق العار به، وبالطبع نحن نعلم أن الإمبراطور الرومانى قسطنطين [الأول] جاء إلى هنا مع طبقة الفرسان الرومانية، وأسس هذه المدينة التى تحمل اسمه؛ لكن أكثر الباباوات قداسةً اعتقد أن اسم الرومانيين وملابسهم لن يعجبكم لأنكم غيّرتم لغتكم وعاداتكم وملابسكم [فاستخدم اسم اليونان فى رسائله]. وإذا كان مقدرًا للبابا أن يعيش، فلسوف يستخدم اسم الرومان فى خطاباته المقبلة، وحينئذٍ سوف تبدأ على النحو التالى : «من يوحنا البابا الرومانى إلى نقفور وقسطنطين وبازيل وأباطرة الرومان العظماء المبجلين !» والآن فإنى أرجوكم أن تقفوا على السبب الذى جعلنى أقول هذا.

ولقد وصل نقفور إلى العرش بالكذب والفحش[3]. وبما أن خلاص كل المسيحيين (ص٤٦٨) كان يحظى باهتمام بابا روما، فقد أرسل البابا

---

[1] الإشارة إلى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة أوتو الكبير حاملاً لقب ملك يعد نوعًا من التحقير والتقليل من شأنه بل وعدم الاعتراف به إمبراطورًا من قبل رجال البلاط البيزنطى.

[2] البابا المشار إليه هو يوحنا الثالث عشر أما الإمبراطور فهو أوتو الكبير.

[3] ترتب على وفاة الإمبراطور رومانوس الثانى أن ترك ابنيه بازيل الثانى، الذى لم يتجاوز الخامسة من عمره، وقسطنطين الثامن، الذى يبلغ من العمر سنتين، تحت وصاية أمهما ثيوفانو، فتقربت إلى نقفور من أجل التخلص من برنجاس Berengas كبير رجال القصر الذى من المفترض أن يكون وصيًا على العرش، ولما كان نقفور محبوبًا من جنده نادوا به إمبراطورًا رغم معارضة برنجاس، غير أن نقفور قمع ثورته وأضفى الشرعية على وصايته على الطفلين بالزواج من ثيوفانو، وهو الزواج الذى عارضته الكنيسة فى البداية. انظر :

Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 311.

راجع أيضًا : السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص٤٦١ – ٣.

رسالةً إلى نقفور عن تلك الأضرحة ذات اللون الأبيض من الخارج والمملوءة بعظام الموتى من الداخل؛ مستشهدًا بها على كيفية حصوله على الحكم بعد أن تخطى أسياده من خلال الكذب والفحش، ولذلك دعا نقفور إلى مجلس كنسي، وإذا لم يحضر فإن لعنة الكنيسة ستلاحقه. [وهنا بادر الأمراء بالرد:] إذا لم تكن اتهاماتك للإمبراطور فى محلها فسيكون من المستحيل أن تصيبه هذه اللعنة.

لكن فلنَعُدْ إلى حديثنا. حينما سمع منى الأمراء، الذين أشرت إليهم آنفًا، الوعد السابق الخاص بأسلوب البابا فى المخاطبة، لم يرتابوا فى أى مخادعة من قِبَلى، ولذا قالوا : «إننا نشكرك أيها الأسقف، فنحن نقدر استخدامك للحكمة فى التعامل كوسيط فى هذا العمل العظيم. إنك الرجل الوحيد بين الفرنجة الذى نحبه الآن، ولعل بتوصيةٍ منك [للبابا والإمبراطورين أوتو وأوتو] يقومون بتقويم ما نعتبره شرًا، وحينئذٍ سيكونون هم أيضًا أهلاً لمحبتنا. وحينما ستأتى إلينا مرةً أخرى، لن ترجع إلى بلادك دون أن تُكافأ».

وقلت لنفسى [متهكمًا] : «إذا رجعت مرةً أخرى إلى هنا فلعل نقفور يهادينى بتاجٍ وصولجان ذهبى».

ثم استأنفوا حديثهم معى قائلين : «أخبرنا هل يريد سيدك المعظم أن يتقرب للإمبراطور بإبرام معاهدة صداقة وذلك عن طريق الزواج ؟»

[قال ليوتبراند:] «حينما جئت إلى هنا كان يتمنى حدوث ذلك، ولكن نظرًا لفترة تأخرى الطويلة التي لم يتلقَّ فيها أية أخبار، فقد ظن أنكم اقترفتم جرمًا ما، وأننى سُجنت وصُفِّدتُ فى الأغلال، وإنه بكامل جوارحه كان مثل روح اللبؤة التى انتزع منها وليدها، فهى مشتعلة برغبةٍ مفعمةٍ بحنق شديد للأخذ بالثأر[1] ، وعندئذٍ يتخلى عن فكرة الزواج ويصبّ جام غضبه عليكم».

---

[1] يلاحظ مبالغة السفير فى الاعتداد بنفسه وبمكانته عند أوتو الكبير بصفته الشخصية لكن من المتخيل أن صفته الرسمية كسفير هى التى قد تضعه فى مثل تلك المكانة.

وقـالوا : «إذا حـاول سـيدك ذلـك، لـن نقــول إيطاليــا، ولا حتــى سكسونيا الفقيرة حيث مسقط رأسه –وهنـاك كـان السكان يرتـدون جلـد الحيوانات المتوحشة– سوف تعصمه عنا. وبأموالنـا التى هـى مكمـن قوتنـا وثباتنا سوف نتمكن من تأليب كل الأمم ضده، ولسوف نمزقه إربًا ونهشـمه تهشيمًا مثل إناء من الفخار الذى فـى حالـة كسـره لا يمكـن أن يُجمـع مـرةً أخرى ليستعيد هيئته الأولى».

صناعـة الحريـر فــى القسـطنطينية وإشــكالية الأرديــة الأرجوانية:

«وعلى مـا نعتقـد [والحديـث لموظفـى الإدارة البيزنطيـة] فلقـد قـام ألــزو Althou[1] بشــراء بعــض الأثـــواب الباهظـــة الثمـــن علـــى شرفه[2]، ونحن نأمرك أن تحضرها إلينا. والمناسب لـك منهـا [وهـى الثيـاب التى لا تُعتبر من النوع الممتاز][3] سوف يتم تمييزه بختمه بخاتم من الرصاص[4]

---

[1] وفقًا لما ورد بكتاب والى المدينة –الذى خصص فصولاً أربعة لتجارة وغزل ونسـج الحرير فـى بيزنطـة، وذكـر القواعـد الدقيقـة المنظمـة لمـا يتعلق بهـذه الصناعـة– فيجـب أن يكـون ألـزو هـذا أحـد التجـار المتخصصين فى تجارة المنسوجات الحريرية، وذلك أن الفقرة الثانية من الفصل الرابع من هذا المصدر تبين أن أمر شراء الأثواب الكبيرة كان قاصرًا على التجار وكانوا بدورهم يتعاونها من أمـراء أو مـن نسـاج حرير إلا أنه كان «ينبغى عليهم أن ينهوا لوالى المدينة بخبرها حتى يعرف أين يجرى بيعهـا، ومـن يخـالف منهم ذلك تعرض للعقوبة» راجع : ليو السادس : المصدر السـابق، ص٣٥٤ – ٥٦. وهنـاك دراسـات اهتمت بدراسة تجارة الحرير فى فـترة العصـور الوسـطى يمكـن مراجعتهـا، ومنهـا : هـايد ف. : تـاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة : أحمد رضا، مراجعة : عز الدين فودة، القاهرة، ١٩٩٤م، ج٤، ص١٧٩–١٨٤ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٤٦ – ٨.

[2] المقصود به أوتو الكبير. هذا ومن الواضح أن الأثواب التى تم شـراؤها باسمـه قـد جـاوز سـعرها العشـر نوميزمات وهو الحد الأدنى الذى ينبغى إبلاغ والى المدينة به عند الشراء. المصدر نفسه، ص١٥٤.

[3] وسام عبد العزيز فرج : الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط، ص٤٦.

[4] وهناك أيضًا فقرة فى كتاب والى المدينة تنص على : «ينبغى مصـادرة مـا تكـدس بالمخـازن مـن الثيـاب [المصنوعة من الحرير] التـى لا تحمـل خـاتم والى المدينـة، وتقـرر مجـازاة أمنـاء المخـازن بالعقوبـة» وهـى الضرب وقص الشعر والطرد من الحرفة. انظر : ليو السادس : المصدر السابق، ص ١٦١.

وتُترك لك، على حين سيكون هناك أثواب محظورة[١] على كل الأمم باستثنائنا نحن الرومان[٢] حيث سيتم استعادتها، بينما يرد إليك ما قمت بدفعه من ثمن».

(ص٤٦٩) بالفعل أقدموا على تنفيذ ذلك، فقد سلبوا منى خمسة أثواب من النوع الممتاز لونها أرجوانى، باعتبار أنكما شخصيًا [يا سيدىّ] وكل الإيطاليين والسكسون والفرنجة والبفاريين والسوابيين -بل وكل الأمم- لستوا جديرين بأن ترتدوا مثل هذه الثياب. كما رأوا أن فى ارتدائكم، رجالاً ونساءً، ملابس أرجوانية اللون[٣] ناعمة ذات أكمامٍ طويلة

---

[١] ورد فى إحدى فقرات كتاب والى المدينة فى هذا الشأن ما نصه : «يجوز لتجار الملابس الحريرية أن يشتروا أثوابًا حريرية، غير أنهم لا يشترون من السلع إلا ما يسد حاجاتهم الشخصية، ولا يجوز أن يبيعوها إلى غيرهم من الناس، ولا يجوز لهم أن يعطوا الأجانب شيئًا من السلع المنوعة، مثل : السلع المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأرجوانى التى من الحجم الكبير، حتى لا تنتقل إلى الأجانب. وكل من ينتهك هذه اللوائح، تعرض للجلد ومصادرة السلع». انظر المصدر والموضع نفسه.

[٢] كان استخدام الأقمشة الحريرية المطبوعة بصور لأحداثٍ تاريخية وأشكال تمثل القديسين أو المشاهد الدينية منتشرة بالفعل فى المجتمع البيزنطى الأول. وكان من غير المستغرب أن نجد سيرة السيد المسيح مُصوَّرة أو مطرَّزة على عباءة عضو بمجلس الشيوخ. كما كان هناك مشاهد ذات طابع دنيوى مطبوعة على المنسوجات المستخدمة فى الملابس الفخمة التى يرتديها رجال البلاط الإمبراطورى. ومن ذلك ما سجله الإمبراطور جستنيان الأول على ملابسه الفخمة من صور تجسد بعضًا من انتصاراته. وفى المرحلة التالية، اقتصر استخدام تطريز الموضوعات الدينية على الملابس الكهنوتية فقط، وهذا ما أصبح معروفًا بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية حتى بداية القرن الثامن عشر. وتحديدًا خلال القرن العاشر الميلادى، ظهرت المنسوجات وقد طبع عليها صورة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء والرسل، إلى جانب المنسوجات الحريرية المزينة بمشاهد تاريخية تسجل حياة الأباطرة فى ذلك الوقت. وإضافةً لهذا وذاك، ظهرت المنسوجات التى تحمل صورًا لحيوانات وطيور مثل : النسر والأسد والطاووس. وعلى سبيل المثال، فقد كان الأسد يرمز فى هذا العصر للسلطة والسيد المسيح، وعادة ما كان يُرسَم على طيلسانات الكهنة النفيسة. ولمعرفة المزيد عن نماذج من الأقمشة البيزنطية والفنون المتبعة فيها، راجع :
Nicolescu, Corina, Les Derniers Tissus de Tradition Byzantine, Ed. dans Etudes Byzantine et Post-Byzantines, I, Publ. Stanescu, Eugen et Tanasoca, Nicolae-Serban, Bucuresti, 1979, p.p. 181-7.

[٣] ما أورده ليوتبراند بشأن منع وصول أردية ذات لون قرمزى أو أرجوانى إلى الألمان وغيرهم -وأظن أن فى ذلك تحقيرًا لهم- إنما كان وفقًا لحظر عام على كل الأجانب إلا فى حالة الحصول على استثناء=

ولها أغطية وطُرَح صالحة للجنسين أمرًا يجلب العار وغير جديد بكم، فلا يجب أن يلبسها مخلوقات تافهة متنطعة، بينما أنتم رجال أقوياء أبطال؛ أعنى مهرة فى فنون الحرب، يملؤكم الحب والإيمان والفضيلة وتبجلون الرب، ومن ثم يجب ألا ترتدونها، فما هذا، ما لم يكن إهانة ؟ ثم قلت [لموظفى الإدارة البيزنطية] : لكن أين كلمة إمبراطوركم، أين الوعد الإمبراطورى ! فقد أعطانى وعدًا وسألته ما الثمن الذى يتيحه لى لشراء أردية كهنوتية على شرف كنيستى[1] ثم قال اشترِ ما شئت وعدِّد ما شئت، وعليه فقد عهد إلىّ بمهمة تحديد الكمية والنوعية. فإذا ما أراد أن يضع استثناءات فكان عليه أن يقول ما عدا هذا وذاك. وكان شقيقه ليو مستشار ورئيس رجال البلاط حاضرًا كشاهد؛ كما كان من ضمن الشهود إينوديسيوس الترجمان ويوحنا[2] ورومانوس، وقد كنت أنا أحد هؤلاء الشهود، وكان فى استطاعتى فهم ما قاله الإمبراطور لوضوحه دون الاستعانة بالترجمان.

وقالوا : «لكن هذه الأشياء محظورة؛ ولم يكن فى وسع الإمبراطور أن يتخيل حين كان يتحدث إليك مجرد أن تحلم باقتناء مثل هذه الأشياء التى ذكرتها، وكان من الطبيعى أن تسعوا إلى ذلك حيث إننا تفوقنا على أممٍ

= من والى مدينة القسطنطينية. المصدر السابق، ص١٥٥. والثابت أن الصبغة الأرجوانية الخاصة بالمنسوجات الحريرية ظلت احتكارًا حكوميًا لأسباب سياسية. انظر : وسام عبد العزيز فرج : الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط، ص٣٢.

[1] وهى كنيسة كرمونا مقر أسقفية كرمونا فى بافيا.

[2] لعله يوحنا تزيمسكيس (الشمشقيق) الذى كان مقربًا إلى نقفور والذى اعتلى عرش الإمبراطورية بعد قتله (٩٦٩ – ٩٧٦م) ربطت فيما بينهما علاقة القرابة، وذكر شارل ديل أن يوحنا كان ابن أخت نقفور، كما كانا رفيقى سلاح. وكانت ليوحنا اليد الطولى فى تولية نقفور العرش، بيد أنه انقلب عليه حينما حط نقفور من شأنه، كما كانت زوجته ثيوفانو قد أيدته فى تمرده وحرضته على اغتياله. انظر: كمال الدين بن أبى جرادة : المصدر السابق، ج١، ص١٣٨، راجع أيضًا : السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص٥١٧.
Diehl, Charles, Figures Byzantines, p.p. 127-9.

أخرى فى الثروة والحكمة، ومن ثم كان ينبغى لنا أن نتفوق[١] عليهم أيضًا فيما نرتديه من ملابس؛ وعلى ذلك فإن الناس الذين وُهبوا المكانة الرفيعة والفضيلة من حقهم أن تخصص لهم ملابس فريدة شديدة الأناقة والجمال».

عندئذٍ أجبتهم [بوقاحة] : «مثل هذه الأردية يمكن بالكاد أن يُطلَق عليها صفة فريدة حينما يلبسها الأشخاص الذين يرتادون الشوارع والمشعوذين».

فسألني [موظف الإدارة البيزنطية] : «من أين حصل هؤلاء عليها؟»

فقلت : «من التجار البنادقة والأمالفيين الذين يقدمون لنا هذه الأردية مقابل حصولهم على المواد الغذائية التى نقدمها لهم»[٢].

فقالوا : «حسنًا، لن يستطيعوا القيام بذلك مرةً أخرى، ويجب مراقبتهم وتفتيشهم بدقةٍ؛ وإذا وجدنا أصنافًا من تلك السلع فى أمتعتهم سيتم معاقبتهم بالجلد وقص شعر رؤوسهم»[٣].

---

[١] بالفعل كانت المنسوجات الحريرية الرائعة المصبوغة بالألوان الزاهية (الأرجوانى والقرمزى وغيرها) هى احتكار وبحد المصانع البيزنطية. وكانت المدن الشهيرة التى لها مكانتها فى هذه الصناعة إلى جانب القسطنطينية هى : سالونيك Thessalonique وطيبة Thèbes وكورنثا Corinthe وبتراس Patras وفى القسطنطينية كانت تباع هذه المنسوجات فى سوق خاصة بها فيما بين محكمة قسطنطين وطوروس عند الميناء. انظر :
Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p.p.94, 114.

[٢] هكذا حاول ليوتبراند أن يوضح لرجال البلاط البيزنطى أن الغرب الأوربى عرف الملابس الحريرية الواردة من بيزنطة منذ زمن بعيد عن طريق التجار البنادقة والأمالفيين. وبالفعل فهناك أكثر من دراسة تؤكد بالأدلة على أن التجار الإيطاليين كانوا أهم رواد الأسواق البيزنطية، خاصة فى القسطنطينية، إذ امتدت العلاقات التجارية الوثيقة بين بيزنطة والبندقية منذ القرن السادس الميلادى، وساعد موقع البندقية على قيامهم بالنشاط التجارى بين الإمبراطورية وبقية إيطاليا، ولذا بدت البندقية سوقًا مفتوحة لمنتجات الشرق والغرب. ولمعرفة المزيد راجع : حاتم الطحاوى : بيزنطة والمدن الإيطالية (العلاقات التجارية ١٠٨١ - ١٢٠٤) الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥٦ - ٦١.
Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 285-6.

[٣] وهذه بالفعل هى عقوبة المتهربين وفق ما ذُكر فى كتاب والى المدينة، وكان نص الفقرة : «وكل مَن لا يُطلِع منهم [أى التجار] والى المدينة على ما ينبغى تصديره من السلع للأجانب، حتى يحصلوا بذلك على موافقته، حل به العقاب». انظر : ليو السادس : المصدر السابق، ص١٥٥.

وقلت : «إنه فى عهد الإمبراطور قسطنطين [السابع] صاحب الذكرى العطرة، قدِمت إلى هنا[1] ليس بصفتى أسقفًا لكن بصفتى (ص٤٧٠) شماسًا؛ ولم أكن وقتها مرسلاً من قِبَل أى إمبراطور أو ملك، لكن من قِبَل النبيل برنجار؛ ومع ذلك اشتريت الكثير والكثير من الملابس القيمة، ولم يقم بتفتيشها أحد من اليونانيين، كما لم يقوموا بختمها بالرصاص. والآن، وبعد أن أصبحت أسقفًا بفضل الرب، قام الإمبراطوران العظيمان أوتو وأتو، الأب والابن، بإرسالى إليكم، وبحق فقد شعرت بإهانة بالغة حينما تم ختم ملابسى كما لو كنت تاجرًا من البندقية؛ إن هذه الملابس التى تعتبرونها ذات قيمة وتريدون مصادرتها حصلت عليها لاستعمال الكنيسة التى أتشرف بتحمل مسئوليتها. ألم يصبكم التعب من توجيه الإهانات لى، ليس لى فقط، بل إلى سيدىَّ الإمبراطورين اللذين نالا الازدراء فى شخصى ؟ ألم يكن كافيًا الزج بى فى السجن حيث تم تعذيبى بالجوع والعطش، إلى الحد الذى معه تأخرت عن العودة إليهما حتى حينه حيث وقعت رهن الحجز، وهل يصح أن تنتهى زيارتى لكم بمعاملتكم المهينة بسلب أمتعتى ؟ إذا استمر إصراركم، خذوا مشترياتى ودعونى أحتفظ بأصناف الأردية والأقمشة التى قدمها لى الأصدقاء على سبيل الهدية».

فأجابونى [موظفو الإدارة البيزنطية] قائلين : «كان الإمبراطور قسطنطين رجلاً متسامحًا ولا يشغل نفسه إلا بشؤون قصره، لذلك اعتاد أن يسترضى الشعوب الأجنبية بتساهله فى مثل تلك الأمور؛ لكن الإمبراطور

---

[1] ذكر رنسمان س أنه عندما زار ليوتبراند القسطنطينية فى سفارته الأولى عام ٩٤٩م استقبله الإمبراطور قسطنطين السابع بكرم، وقد انعكس ذلك على كتابات السفير إذ كانت حدة عدائه فى مؤلف Antapodosis أقل بكثير من حدتها فى كتابة هذا التقرير، ويمكن مقارنة العملين بالرجوع إلى :
Liudprand, Opera (Antapodosis), (Reatio de legatione Constantinopolitana), Ed. Bekker, (Scriptores Rerum Germanicarum), (Die Werke Liudprands Von Gremona) Hanover, 1915, Cf. also, Runciman, S., Op. Cit., p. 4, N. 1.

نقفور الذى يعد وكأنه خُلق للحرب، كان يمقت القصر بشدة كما لو كان وباءً، ولذا أطلقنا عليه اسم محب الحرب، وعاشق النضال، ولم يحاول أن يجعل هذه الأمم صديقةً له بجزل العطايا إليهم، لكنه كان يخضعهم لحكمه نزالاً بالسيف. ولكى يمكنك أن تعلم ما هو رأينا فى سادتك من العائلة الملكية، فإن كل هذه القطع من الملابس المصبوغة سواء التى مُنحت لكم أم التى تم شراؤها يجب أن ترد إلينا من المنطلق نفسه»[1].

وبعد أن نفذوا ما قالوه آنفًا، قدموا لى رسالةً مكتوبةً ومختومةً بختم ذهبى لأحملها إليكما؛ غير أن ذلكم الختم لم يكن جديرًا بكما على ما أعتقد. كما أحضروا أيضًا رسائل أخرى مختومةً بالفضة، وقالوا : «نحن نرى أنه من غير اللائق أن يتسلم البابا لديكم رسائل من الإمبراطور؛ لكن [ليو] شقيق الإمبراطور ورئيس رجال البلاط أرسل إليه رسالةً لائقةً به، ليس من خلال مبعوثيه الفقراء[2] لكن من خلالك لغرض "فإن لم يعد إلى رشده فسوف يعلم أن بأسنا شديد"».

---

[1] وردت ترجمة هذه الفقرة الأخيرة فى إحدى الدراسات على النحو الآتى : «والآن سنبين لك كيف أننا نكن القليل من الاحترام والتقدير لسادتك الملوك الصغار، فلن نأخذ بأى شىء مما قلت بخصوص التمييز بين المشتريات والهدايا. فأى صنف من الملابس والمنسوجات من هذا اللون سيعود إلينا بالطريقة نفسها وسنطبق هذا على كل ما معك». انظر : وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق، ص٤٩، معتمدًا على النص اللاتينى المشار إليه فى الحاشية السابقة.

[2] يبدو أن من ذلك إشارة إلى حرص رئيس القصر ليو على عدم محاكاة البابا يوحنا الثالث عشر فى استخدام الرهبان كرسل إذ يستشف من سياق التقرير أن الرسولين اللذين كان البابا يوحنا الثالث عشر قد أوفدهما إلى القسطنطينية كانا من الرهبان ومما يؤكد على صحة تلك الرؤية الإشارة المذكورة أعلاه إلى الرسولين بأنهما من الفقراء، وفى ذلك تقليل من شأن هؤلاء فى العمل بالسلك الدبلوماسى فى نظر رجال البلاط البيزنطى.

مغادرة محفوفة بالمتاعب والفشل :

وفور تسلمى هذه الرسائل، أخلوا لى السبيل كى أرحل، ومنحونى قبلاتٍ كانت شديدة العذوبة ومفعمةً بالحب. لكن بمجرد رحيلى (ص٤٧١) بعيدًا، أرسلوا رسالةً لائقةً بهم بالفعل لكنها لا تليق بى [وورد بها] فقد عزموا على إمدادى بجياد بشكلٍ شخصى، وكذلك رفاقى على أن لا تُحمل أمتعتى. وبالرغم من ذلك، كان فى ذلك إزعاجٌ شديد لى، وهذا يُعد أمرًا طبيعيًا –إنه كان علىَّ أن أقدم قطعًا من الذهب إلى مرشدى بما يساوى خمسين قطعةً من الذهب، وقمت بكتابة هذه الأبيات، ليس بقصد مجرد الثأر من تصرفات نقفور المريضة، وكان ذلك على حائط مسكنى البغيض وعلى منضدتى الخشبية :

أيها اللاتينى ليس للراجوزيات Aragolian[1] ميثاق، فالزم الحذر منهن إذ لا عهد لهن، وتجنبهن ولا تصغى لما يقولنه، فيمكن للأرجوزيين Argive أن يقسموا بكل ما هو مقدسٌ طالما أن ذلك فى صالحهم.

---

[1] وردت فى النص فى صيغة المؤنث ومذكرها هو الراجوزيون Argive، وإذا ما أتت برسم Argivium فإنها تعنى الأرجوزيين أو اليونانيين عامة، نسبة إلى مدينة تدعى راجوزة Ragusa تقع على الساحل جنوب غرب البلقان. انظر : قسطنطين بورفيروجينيتوس : المصدر السابق، ص١٠٦، ١٠٩.

Simpson, D.P., Op. Cit., p. 662.

ويلاحظ أن ليوتبراند قد حرص على إيراد الأرجوزيين مضيفًا عليهم صفة التأنيث بغرض النكاية بهم وتجريد رجالهم من صفاتهم كرجال، ولما كانت أسرة فوقاس التى ينتمى إليها نقفور ترجع إلى أصلٍ شرقى من إقليم قبادوقيا Cabbadocia فى آسيا الصغرى، انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق، ص١٧٠، يتبين أن نقمة ليوتبراند قد أخذت تعم جميع البيزنطيين فضلاً عن رجال البلاط الإمبراطورى، بدليل أنه شملهم جميعًا فى ذمةً.

[بناء] سامق بنوافذ عالية منمقة برخام مختلف أشكاله.

ذلكم هو مكان إقامتى الذى يفتقر للمياه وإن كان يسمح بدخول الشمس.

فهو يزيد البرد بردًا قارصًا ولا يدرأ وهج الحرارة حينما تشتد.

أنا ليوتبراند أسقف كرمونا إحدى مدن أوسونيا Ausonia.

أتممت رحلةً إلى القسطنطينية حبًا فى السلام؛

حيث احتجزت طوال أشهر الصيف الأربعة.

لأن الإمبراطور أوتو ظهر قبالة بوابات بارى.

وقد تفانى من أجل الاستحواذ على المكان سواء بإضرام النيران أو بإيقاع المذابح[1].

ونتيجة لدعواتى، زحف [أوتو] من هذا المكان إلى روما، المدينة التى من ممتلكاته بينما قطعت اليونان وعدًا بتقديم عروس[2] إلى ابن المنتصر.

آه، كان من الممكن أن أكون فى غنى عن رحلة البلاء هذه لو لم تُولد هذه العروس.

---

[1] ربط أحد الباحثين هجوم أوتو الكبير على بارى بحدث وصول الأسطول البيزنطى إلى لونجوبارديا الذى كان ليوتبراند قد رآه يبحر من القسطنطينية أثناء شهر يوليو وكان الهجوم بغرض المبادرة بالاستيلاء على أجزاء من الممتلكات البيزنطية. راجع :

Shlumberger, G., Op. Cit., p.p. 666 - 7.

والواضح أن الدافع الرئيسى من وراء حمل أوتو الكبير تلك تمثل فى مضى وقت طويل دون أن يسمع خبرًا عن سفيره ليوتبراند مما جعله يظن فى أن السفارة لم تحرز نجاحًا وأن بيزنطى على موقفها من قضية الجنوب الإيطالى فقرر استخدام القوة لطرد البيزنطيين من هناك.

[2] يلاحَظ عدم تحديد التقرير لمن هى العروس وكيف تم الاتفاق.

ولكنت فى منأى ومأمن من حنق نقفور الذى صبَّه علىَّ –

فهو الذى منع ابنة زوجته من الزواج بابن مولاى[١] !

عجبًا، فأتون الغضب تتأجج فى النفوس تنذر بقرب اندلاع الحرب.

فإذا لم يشأ الرب أن يخمدها فلا مناص من أن يعم الغضب الشديد جميع أرجاء الأرض.

ولن يتحقق السلام الذى ينشده الجميع جراء ما اقترفه [نقفور] من ذنوب.

الوصول إلى مدينة نوباكتوس :

بعد تدوين هذه الأبيات، وذلك فى اليوم السادس قبل النون من أكتوبر [الثانى من أكتوبر]، فى الساعة العاشرة، دخلت إلى مركبى ومعى مرشدى، تاركًا [القسطنطينية] أكثر المدن ثراءً وازدهارًا، والتى أصبحت الآن شبه جائعة، مهانة، كاذبة، مراوغة، طماعة، جشعة، بخيلة، مغترة بمجدها الأجوف؛ وبعد أن قضيت فى الطريق تسعة وأربعين يومًا بين راكبٍ لجحش، وسائرٍ، وممتطٍ لجوادٍ، وصائم، وظمآن، ومتحسِّر، وباكٍ، ويائسٍ، وصلت إلى مدينة نوباكتوس Naupactus التى هى ذاتها مدينة نيقوبولس Nikapolis[٢] . وبعد أن أدخلنا مرشدى إلى مركبين صغيرين، تركنا هناك، حيث تم تسليمنا إلى اثنين من رجال الإمبراطور كان عليهما اصطحابى إلى [مدينة]

---

(١) العبارة تؤكد على أن العروس ليست هى ثيوفانو ابنة رومانوس الثاني.

(٢) تعرف هذه المدينة أيضًا لدى الإيطاليين باسم ليبانتو Lepanto وهى تقع عند مدخل خليج كورنثا Corinth أو خليج ليبانتو حيث شواطئ شبه جزيرة البلقان. انظر :
Vasiliev, A.A., Op. Cit., p.p. 84 - 5.

هيدرونوتو Hydronoto[1] عن طريق البحر (ص٤٧٢) ولكن منذ أن جردت الطائفة التى ينتميان إليها من حق تجنيد عسكر خاص بها من الأمراء اليونانيين، كان عليهم أينما كانوا التصدى للعدو بأنفسهم؛ ولذلك فلم يتوليا مساعدتنا بل كنا نحن الذين نساعدهما. وكم من مرةٍ دار تفكيرى حول مقولة تيرنس Terence[2] : «مَن قد تختارهم ليدافعوا عنك تجدهم هم أنفسهم محتاجين إلى معونتك أنت».

وفى اليوم التاسع قبل غرة شهر ديسمبر [الثالث والعشرين من نوفمبر] تركنا نوباكتوس ووصلت إلى نهر أوفيدر Offidaris[3] بعد يومين -فإن زملائى لم يبقوا فى المركبين، إذ لم يكن فى وسعهما احتمالهم بينما مضت المركبان فى سبيلهما فى محازاة الشاطئ- ومن موقعنا الذى وصلنا إليه عند نهر أوفيدر، كانت أنظارنا ترنو إلى بتراس Patras[4] التى كانت

---

[1] هى مدينة هيدروس Hydrus القديمة التى عُرفت فيما بعد باسم أوترانتو Ortanto إحدى مدن جنوب إيطاليا، وكانت خاضعةً للسيادة البيزنطية. انظر :

Vasiliev, A.A., Op. Cit., p. 263.

ويبدو أن المسمى هيدرونتو الذى استخدمه ليوتبراند كان فى المرحلة الانتقالية لتطور المسمى وتحوله من هيدروس إلى أوترانتو.

[2] لعله هو الأديب والشاعر الرومانى بيبلوس ترنتيوس أفير Bublius Trentius Afir؛ اختلف الدارسون فى تحديد تاريخ مولده؛ فمنهم من حدده بعام ١٩٣ق.م، ومنهم من ذكره بعام ١٨٣ق.م، وعليه فقد عاش أربعة وثلاثين أو أربعة وعشرين عامًا فقط، إذ كانت وفاته فى عام ١٥٩ق.م، بينما ولد فى قرطاجة. كتب ست مسرحياتٍ كوميدية فى أسلوبٍ يغلب عليه السخرية والهزل إضافة إلى الشعر، وقد عنى بسيرته الكاتب الرومانى سويتونيوس Suetonios فى القرن الأول الميلادى. انظر :

The Oxford Companion to Classical Literature, Oxford, 1989, Art. Trentius.

[3] يمكن تحديد مصبه فى شمال غرب جزيرة المورة فى البلقان.

[4] وتكتب Patrai أيضًا وهو ميناء يحمل هذا الاسم ويقع على الساحل الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى علمًا بأن هناك ميناء آخر يحمل المسمى نفسه يقع فى شبه جزيرة المورة على البحر الأيونى بالقرب من مدخل البحر الأدرياتى.

Simpson, D.P., Op. Cit., p. 427

تقع عند الشاطئ المقابل من البحر على مبعدة ثمانية عشر ميلاً منا. ففي هذه البلدة كانت معاناة الرسل المباركين، حيث قمنا ونحن في رحلة القدوم إلى القسطنطينية بزيارة هذا المكان وتعظيمه، أما الآن فقد قصرنا في واجب الزيارة والتعظيم، وإني أُقر وأعترف بخطئي هذا. غير أنني، يا من لكما الحكم والسيادة، كنت مدفوعًا برغبةٍ كمينةٍ جارفةٍ إلى العودة إليكما ورؤيتكما، وكان ذلك هو السبب فيما حدث؛ وإن لم يكن هذا هو السبب وحده لكنت اعتقدت أنني هالكٌ إلى الأبد.

وما لبثت أن هبت عاصفة ضدى من جهة الجنوب –لقد كنت مجنونًا– وهاج البحر حتى بلغت شدة ثورانه القاع. وحينما امتد هذا الهياج لعدة أيامٍ وليالٍ، ففي اليوم السابق لغرة شهر ديسمبر [الثلاثون من نوفمبر] –أعني ذلك اليوم الذى كان فيه غضب الرب شديدًا– أدركت أن هذا كله حدث لى جراء خطئي؛ فالأزمة التي مررت بها هي التي لقنتني درسًا كان لزامًا على أذني أن تنصت إليه : ذلك أن وطأة الجوع أخذت في النيل منا بعنف. كما فكر سكان هذه الأرض في قتلنا، بغرض أن يتسنى لهم الاستيلاء على ما معنا من بضائع[1]. وكانت أمواج البحر العالية عائقًا أمام رحلتنا. ولهذا وليت وجهي شطر الكنيسة التي كنت رأيتها، باكيًا ومنتحبًا، وقلت: «آه أيها الرسول أندرو Andrew المقدس، إنني خادم لرفيقك الصياد، أخوك وصديقك الرسول سمعان بطرس Simon Peter[2]، إنني لم

---

[1] يلاحظ أن أثمن ما كان بجعبة السفارة هي البضائع، إشارةً من ليوتبراند إلى ما اقتناه من ملابس كانت في نظره جديرةً بأن تأتي على رأس الأشياء المعرَّضة للسرقة.

[2] تخلُص إحدى الدراسات المتخصصة في تاريخ الكنيسة عند التعرض لشخصيتي أندرو وسمعان بطرس إلى أنهما شقيقان وأنهما من الحواريين الاثنى عشر، تلاميذ السيد المسيح، بيد أن سمعان بطرس كان=

أقصد عدم القدوم إلى حيث المكان الذى شهد تعذيبك أو الابتعاد عنه بسبب الكبرياء، فلقد دفعتنى أوامر إمبراطورىّ وحبى لهما إلى العودة لوطنى. فإذا كان إثمى جعلك تسخط علىّ، فليقودك فضل سيدىّ العظيمين إلى أن ترحمنى. أليس هناك شىء تنعم به على أخيك [بطرس]؟، هلا تَهِبُ شيئًا للإمبراطورين اللذين يحبان أخيك بعد أن وضعا ثقتهما فيه وهو الذى يحيط بكل شىءٍ علمًا. أما أنت فإنك تعلم بما يُقدم من عمل وجهد، وكذلك تعلم من يؤدى الصلوات ومن ينفق فى سبيل (ص٤٧٣) إعادة الكنيسة الرومانية الخاصة بأخيك بطرس الرسول إلى أفضل حالة، ذلكما هما سيدىّ الإمبراطوران اللذان أصبحا من الأثرياء أصحاب العزة الممجدين –كما تعلم أولئك الذين يكفرون بالرب فتنتزع منهم عزهم– وإذا ما أدخلنى عملى فى مهالك، فلتجعل على الأقل حسناتهما تخلصنى؛ ولا تدع هذين الإمبراطورين اللذين يأمل لهما أخوك بطرس –أخوك فى الإيمان والدم ورئيس الرسل– أن يتمتعا بالسعادة والرخاء ألا يا يتعسا لتعاستى وأنا الرجل الذى تم اختياره، اختاراه بنفسيهما لإرساله مبعوثًا» !

إن هذا الأمر ليس مدحًا يا سيدىّ وإمبراطورىّ المبجلين. وإن ما أخبرتكما به لصدق، وأنا لم أطوِ وسائد تحت ذراعى[1] –وإنى أقول ما أقوله

– أولهم إذ أعطاه الرب هذا المركز بين رفقائه، وأهم ما يذكره المسيحيون له أسبقيته فى الاعتراف جهارًا بالمسيح على أنه ابن الله. وقد نشأ الشقيقان على حرفة الصيد عن أبيهما، وبقيا يمارسانها حتى دعاهما الرب ليكونا «صيادى الناس». وكان أندرو من أبناء الجليل شمال فلسطين، وتتلمذ على يد يسوع المسيح وهو الذى أقنع أخاه باتباعه. ولمعرفة المزيد راجع : أندرو ملر : مختصر تاريخ الكنيسة من البداية إلى القرن العشرين، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٣م، ج١، ص٥٧–٦٥.

[1] بمعنى لا أطويكما تحت ذراعى بالتزلف إليكما.

بصدق– إذ بعد يومين وبفضل حسناتكما أصبح البحر هادئًا ومستكينًا للغاية، حتى إنه بعد أن أقدم بحارتنا على تركنا، قمنا بالإبحار بأنفسنا صوب ليوكيت Leucate[1]، وذلك بمسافة تقدر بمائة وأربعين ميلاً، دون أن نتعرض لأى خطرٍ أو نشعر بعدم الراحة، غير أن بعضًا منا لم يكن لديه هذا الشعور، وذلك عند مصب نهر أخولى Acheloi[2] حيث التيار المائى ينحدر سريعًا لأسفل مما جعله يرتطم بأمواج البحر [الأيونى].

وصايا التقرير :

أيها الإمبراطوران العظيمان، ماذا ستقدمان للرب مقابل كل ما فعله بى لأجلكما ؟ سأخبركما كيف يشاء الرب هذا وكيف أن إرادته نافذة. وبالرغم من أنه سوّاكما يقدر على فعل ما يشاء إلا أنه يريد أن تكونا أداته فى إنجاز هذا الأمر. لهذا قام بنفسه بتزويدها [أى الكنيسة] بما يُحتاج إليه، وذلك من الصدقات، مبقيًا على ما أتاحه لنا من فرصةٍ بما طلبه منا تقربًا إليه، وكان ذلك من فيض كرمه. وعليه، فإنى أرجو أن تنتبها إلى ما يلى. فإن نقفور يعد رجلاً يزدرى كل الكنائس بسبب الضغينة التى فاض بها قلبه نحوكما، وانطلاقًا من مشاعره تلك وجَّه إلى بطريرك القسطنطينية أمرًا بأن ترتقى كنيسة هيدرونوتو [أى أوترانتو] إلى مرتبة الأسقفية، كما أمر بعدم السماح بالاحتفال بالأسرار المقدسة[3] فى البلاد اللاتينية، فى كل أرجاء

---

[1] هو جبل داخل فى البحر يعتبر جزءًا من مدينة لوكاديا Leucadia إحدى جزر البحر الأيونى. ويعرف الجبل حاليًا باسم دوكاتون Doukaton بينما تعرف الجزيرة باسم ليفكاس Levkas. انظر: Simpson, D.P., Op. Cit., p. 342.

[2] هو أطول أنهار اليونان، يقع منبعه فى منطقة إبيروس Epirus ويصب فيما بين أكرنانيا Acarnania وإتوليا Aetolia فى غرب اليونان. Ibid, p.p. 5, 9, 29.

[3] وردت كلمة سر فى العهد الجديد بمعنى حقيقة روحية عميقة لا يقدر إنسان أن يدركها بعقله الطبيعى، كما أنه لا يقدر أن يفهمها فهمًا صحيحًا فى هذا العالم لأنها تفوق الإدراك الطبيعى؛ ومن الأسرار=

أبوليا وكلابريا، إنما يكتفي بالاحتفال بها في اليونان[1]. كذلك قال إن البابوات السابقين كانوا تجارًا، وإنهم باعو الروح القدس[2] –هذه الروح التي كانت تهيمن وتسيطر على كل الأشياء– التي شملت الكون كله؛ كما عرفت كلمة الله The Word؛ وهي ذات جوهر واحد للرب الأب وابنه يسوع المسيح، كما لها أبدية مشتركة بلا بداية، بلا نهاية، حقيقة ثابتة للأبد؛ تلك هي [روح السيد المسيح] التي لا يمكن تقديرها بثمنٍ محدد، لكن أصحاب القلوب الطاهرة اشتروها بالقيمة التي يؤمنون بها بأنها لا تُقدَّر بمال، وأن روحه لا تُباع. وبناءً على ذلك (ص٤٧٤) حرر بوليوكتوس بطريرك القسطنطينية امتيازًا لأسقف هيدرونوتو يتضمن هذا الغرض –أنه حصل بسلطته [بوصفه بطريركًا] على إذن بتخصيص عدد من الأساقفة في أكرنزا Acerenza وتيرسي Tursi وجرافينا Gravina وماتيرا Matera وتريكاريكو Tricarico[3] : على الرغم من أن هذه الأسقفيات تنتمي بما

= المذكورة في الإنجيل : سر إقبال الأمم على الإيمان بالسيد المسيح (رسالة رومية ١١ : ٢٥)، وسر قيامة الموتى (كورنثوس الأولى ١٥ : ٥١)، وسر ميلاد المسيح من عذراء واتحاد لاهوته بناسوته (تيموثاوس الأول ٣ : ١٦)... إلخ.

[1] احتفظت بعض المؤسسات الكهنوتية اليونانية بأسرارٍ لها فلا تفضي بها إلا إلى الأخصاء من تابعيها، وذلك بعد إجراء اختبارات معينة يشترط اجتيازها. انظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق، مادة سر.

[2] هي روح الله، الأقنوم الثالث في الثالوث المقدس في المسيحية، وإذ حبلت السيدة العذراء حبل بالمسيح فيها من الروح القدس. انظر : المرجع نفسه، مادة : الروح القدس.

[3] اتبعت بيزنطة سياسة دينية ماهرة منذ أواخر القرن التاسع الميلادي في البلاد اللاتينية الواقعة في جنوب إيطاليا عندما سعت الإمبراطورية إلى نشر الثقافة الهلينية والطقوس الدينية القائمة على الأرثوذكسية، وكانت الخطوة الأولى هي إنشاء ثمانية أسقفيات تبعت مطرانية القديسة سفرينا Santa-Severina في منطقة كلابريا، ثم كانت الخطوة التالية (وهي المشار إليها أعلاه) بتأسيس خمسة أسقفيات جديدة=

لا يقبل الشك إلى مقاطعة السيد البابا، ولكن ما حاجتي إلى أن أقول ذلك بينما نجد في الواقع أن كنيسة القسطنطينية نفسها تابعة بشكلٍ مباشرٍ إلى كنيستنا الرسولية الكاثوليكية في روما[1] . ونحن نعرف؛ بل قل إننا قد رأينا -أن أسقف القسطنطينية لم يتمتع باستخدام البليوم Pallium[2] إلا بعد الحصول على إذنٍ من أبينا المقدس. إنه حينما استحوذ ألبريك Alberic أشد الناس إلحادًا -الذى لم يكن جشعه مجرد قطرات وإنما كان ملء سيلٍ جارف- على مدينة روما لنفسه[3]، واحتفظ بالسيد البابا كعبدٍ شخصيٍ له في محل إقامته[4] ، قام الإمبراطور رومانوس الثاني ليكيبانوس

= تابعة لمطرانية أوترانتو، علمًا بأن الذين احتلوا المناصب الأسقفية في تلك الأسقفيات كانوا يونانيين تابعين لسلطة بطريرك القسطنطينية وشملت سياسة بيزنطة أيضًا إغراء الأساقفة اللاتين بالانضواء تحت سلطتها، ومن الممكن ملاحظة التأثير اليوناني على كنائس جنوب إيطاليا حتى يومنا هذا. انظر :

Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p.p. 84 - 8.

[1] وهذا ما أقرته المجالس المسكونية ومنها مجلس القسطنطينية ٣٨١م، ومجلس خلقدونيا ٤٥١م.

[2] البليوم هو طيلسان البابا أو الأسقف في بلاد اليونان

Simpson, D.P., Op. Cit., p. 421

[3] هذه الأفعال تنطبق مع ألبريك الثاني لما اتصف به؛ ففي عام ٩٣٢م استولى على حكم روما لنفسه، وحمل لقب الأمير prince والسيناتور senator، وظهر بمظهر الطاغية في حُكمه، وقامت سياسته مع كنيسة القديس بطرس على أساس السيطرة عليها هو وأفراد أسرته، وجرد الباباوات من مهامهم الوظيفية التي تعود عليهم بالهيبة والنفوذ، ولذا أبقى عليهم تحت وصايته حتى توفي في عام ٩٥٤م. انظر :

Tout, T.F., Op. Cit., period II, p. 30.

[4] البابا المشار إليه هو يوحنا الحادى عشر John XI (٩٣١ - ٩٣٦م) وهو ابن ماروزيا Marozia إحدى السيدات اللاتى حكمن روما، وكان زواجها الثالث من هيو البروفنسالي ملك إيطاليا الذى تمكن من تسوية انتخاب كنسي، ارتقى بابنها الأوسط يوحنا إلى كرسي البابوية وهو في سن العشرين؛ غير أن أخاه ألبريك الثاني وضعه هو والباباوات الذين تلوه تحت وصايته، فسيطر على الكنيسة. انظر :

Ibid., Loc. Cit.

بتنصيب ولده المخصي ثيوفيلاتوس Theophylatus بطريركًا[1]. وبما أن جشع ألبريك لم يكن خفيًا عن الإمبراطور، فقد أرسل له كثيرًا من الهبات العظيمة، وترتب عليه إرسال عدة رسائل حملت اسم البابا إلى البطريرك ثيوفيلاكتوس، واستنادًا عليها منح سلطة هو وخلفاؤه من بعده على حدٍ سواء، تخولهم استخدام البليوم دون الحصول على تصريح من الباباوات. وبناءً على هذه الصفقة الدنيئة ظهر تقليد استخدام البليوم، ليس بين البطاركة فحسب بل انتشر بين كافة بطاركة اليونان. كم أن هذا الأمر سخيف، فأنا لا أحتاج أن أقوم بتوضيحه، ومن ثم فخطتي تتمثل في ضرورة عقد مجلس ديني على أن توجه دعوة إلى بوليوكتس [بطريرك القسطنطينية] للاشتراك فيه. ولكن إذا ما لم يظهر اهتمامًا بالحضور وتصحيح الأخطاء [المترتبة على الصفقة] التي ذكرها سالفًا، وحينئذٍ عليكما تنفيذ الآتي وهو ما ستقره قواعد الكنيسة. ألا تقدران يا إمبراطوريَّ العظيمين وبينما يحدث ذلك أن تستمرا فيما تبذلانه من جهود كما اعتدنا منكما؛ فإذا ما أظهرتما هذه الهمة، فلسوف يسمع [نقفور] في مالة ما لم يذعن لنا بما تم حشده استعدادًا للزحف عليه وقد استندتما إلى قواعد الكنيسة،، وحينئذٍ فإن قواته التي لا تقاتل إلا بنصف فاعليتها لن تجرؤ على التصدى لنا، وإني متأكد أن هذا هو ما يتمناه كل الرسل المباركين من سيديَّ [الإمبراطورين] وأعوانهما

---

[1] تولى البطريركية من عام ٩٣٣ إلى ٩٥٦ فعاصر أبيه رومانوس الثاني وقسطنطين السابع وكان رمانوس قد حرص على أن يؤسس أسرة حاكمة في خط متوازٍ مع الأسرة المقدونية فجعل من أبنائه الثلاثة الأوائل ولاه للعهد بينما خطَط لرابعهم وهو ثيوفيلاتوس أمر اعتلاء منصب البطريركية فعينه نائبًا للبطريرك تمهيدًا لأن يصبح فيما بعد بطريركًا. انظر :
Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 997.

المقاتلين التابعين. وليس لأن قسطنطين [الكبير] ترك روما [بصفتها عاصمة] يعنى أنها تقع فريسة لإذلال اليونانيين؛ وبالأحرى فإن هذه المدينة كانت أشد حرمةً وأكثر حبًا وقدسيةً، الأمر الذى دعى الرسولين المعلمين المقدسين بطرس وبولس Paul[1] للذهاب إليها.

[ثم ختم ليوتبراند هذا الجزء من تقريره فيذكر] بيد أنى أرى أن ما كتبته فى هذا الشأن [شأن الخطة المقترحة] يعد كافيًا، ولنتوقف إذًا عند انتزاع روما من أيدى اليونانيين، وأنه بفضل الرب وبدعوات أكثر الرسل قداسةً، تمكنت من الوصول (ص٤٧٥) إليكما، وإنى لا أجد غضاضةً فى أن أدوِّن الآن وفى هذا الموضع ما كان يضيق به صدرى. وعليه، فدعونا نرجع للموضوع الذى نحن بصدده.

رجال الدين البيزنطيون فى عين ليوتبراند :

فى اليوم الثامن قبل العيدس من شهر ديسمبر [السادس من ديسمبر] وصلنا إلى ليوكيت، حيث كان أسقف ذلك المكان مخصيًا شأنه شأن كل الأساقفة فى كل مكان، فقد تم استقبالنا ومعاملتنا بطريقةٍ غير وديةٍ على الإطلاق. وإنى لم أجد فى كل اليونان –أتحدث بصدق لا أكذب– أية أساقفة حسنى الوفادة. ففى الوقت نفسه، نجدهم فقراءً وأغنياء؛ أغنياء بالذهب الذى استولوا عليه من الخزائن الزاخرة به؛ وهم فقراء فيما لديهم من خدمٍ وأدوات. إذ أنهم كانوا يجلسون بمفردهم ويخدمون أنفسهم على موائدهم الصغيرة البسيطة المجردة من الفرش، ويضعون أمامهم نوعًا من

---

[1] دُعى بولس برسول الأمم، كان قد استمد هذه الصفة من الله رأسًا، لذلك اتجهت خدمته إلى إعلان حقائق سماوية جديدة من جهة المسيح والكنيسة وسر وحدتهما وهى حقائق فى الديانة المسيحية لم تكن معروفة من قبل إرساليته. راجع المزيد عنه فى : أندرو ميلر : المرجع السابق، ج١، ص٥٤.

بسكويت البحارة؛ وعلاوةً على ذلك فهم لا يشربون الخمر، بينما هم يرتشفون جرعاتٍ صغيرةٍ من الماء فى كوب صغير الحجم جدًا. ويتولون بأنفسهم عملية البيع والشراء؛ كما يتولون غلق وفتح الأبواب بأنفسهم؛ وكانوا بمثابة الوكلاء والموظفين الماليين وسُيَّاس الحمير لأنفسهم، وهم كذلك أصحاب الحانات Capones التى يديرونها لصالحهم، آه .. لقد أوشكت أن أكتب "خصيان caupones"، ولِمَ لا فالأمر نفسه شديد الوضوح والصدق حتى وجدت نفسى أكتب الحقيقة حتى وإن كانت ضد إرادتى لأنهم فى الحقيقة وأكرر "خصيان"، وهو أمر ضد القانون الكنسى.. وهم كذلك من أصحاب الحانات capones وهو أمر أيضًا ضد أعراف وقوانين الكنيسة، وهناك مَن يقول عنهم : «كان الخصى هو نهاية الوليمة كما كانت بدايتها بالخصى، وكان الخصى هو أيضًا نهاية ولائم آبائهم»[1].

فى الواقع كان يمكننى أن أعتبرهم سعداء بفقرهم إذا كان ذلك محاكاةً لفقر المسيح، لكن لا شيء يرغمهم على هذا الربح الدنيء والظمأ اللعين للذهب. لعل الرب يصفح عنهم ويهديهم[2] ! وإنى لأعتقد أنهم يفعلون ذلك لأن كنائسهم كانت تدفع الضرائب. فقد أقسم لى أسقف ليوكيت أن الكنيسة كانت مجبرة على دفع مائة قطعة ذهبية إلى نقفور كل عام؛ وكان ذلك هو شأن باقى الكنائس، ولكن كلاً حسب موارده[3]. كم

---

[1] لم يتم التعرف على صاحب هذه المقولة والمغزى منها.

[2] على الرغم من أن العبارات السابقة انصبت على الرهبان، إلا أنها تنطبق أيضًا على رجال الدين الكنسيين إذ كان مجلس خلقدونيا المسكونى عام ٤٥١م قد أقر منح الرهبان درجاتٍ كنسية ومما ساعد ليوتبراند على إبداء شهادته عن الرهبان البيزنطيين بدقة هو احتكاكه بهم فى المؤسسات الدينية الخاصة بهم فى جنوب إيطاليا حيث بلغوا بنشاطهم فى الدعوة الأرثوذكسية إلى أبواب روما. وعن النفوذ الدينى الأرثوذكسى فى إيطاليا. راجع :
Diehl,Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 85.

[3] تؤكد الشواهد على أن نقفور الثانى كان قد أخذ موقفًا مضادًا من رجال الدين بسبب مبالغتهم فى التشنيع به ورفضهم زواجه من ثيوفانو إذ أصدر فى سنة ٩٦٤م قانونًا حد به من ملكيات الكنائس=

يبدو هذا شريرًا إذا ما قورن بالأعمال التى أقدم عليها الأب الأكثر قداسةً يوسف [عليه السلام] Joseph لأنه حين جعل من مصر كلها دافعة للضريبة لفرعون، خلال فترة المجاعة، سمح بأن تُصبح أرض القساوسة معفيةً من الضريبة.

تجارب مريرة :

(ص٤٧٦) وغادرنا ليوكيت فى اليوم التاسع عشر قبل غرة شهر يناير [الرابع عشر من ديسمبر]، وأبحرنا بأنفسنا منذ اللحظة التى تركنا فيها بحارتنا هاربين، كما ذكرنا قبل ذلك، فى اليوم الخامس عشر [الثامن عشر من ديسمبر] وصلنا إلى مدينة كورفو Corfou[1] فى وقت نشبت فيه حربٌ ما[2] قبيل أن نغادر السفينة، وهناك قابلنا أحد القادة العسكريين، الذى يدعى ميخائيل Michael، وكان من أهل خيرسون Cherson فقد كانت مدينة خيرسون مسقط رأسه، وهو رجلٌ ذو شعرٍ أشيب، وله وجه بشوش، وطبعه طيب عند التحدث، ودائمًا ما كان يضحك فى سعادة؛ غير أنه ما لبث أن تقلبت أحواله وتملك الشيطان من قلبه –أدركت ذلك بتوفيقٍ من

= والأديرة، ووصف الرهبان بأنهم أبعد الناس عن الدين والحياة الدينية وصادر أموالهم وأملاكهم، وأمر أن يتفرقوا فى الصحارى حتى لا يتسنى لهم التدخل فى شئون الدولة، كما فرض ضرائب ثقيلة عليهم وعلى الكنيسة. واستعان نقفور بما عاد عليه من أموالٍ طائلةٍ فى أن يعيد مجد بيزنطة القديم. انظر :
Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 313
راجع : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق، ص١٦١-٢؛ محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل فى التاريخ الحربى والسياسى) الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص٢٠٣. ويجدر بالذكر أن مسئولية الكنائس فى دفع الضرائب كانت مسئولية تضامنية بحيث تتحمل الأراضى الخصبة التابعة لها دفع الضريبة عن الأراضى البور. ويعد هذا النوع من الضرائب من النوع غير المباشر. ولمعرفة المزيد عن هيكلة النظام الضرائبى فى الدولة البيزنطية راجع :
Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 73.

[1] تقع جزيرة كورفو إحدى الجزر الأيونية قبالة ساحل شبه جزيرة البلقان.

[2] من الواضح أنها منازعة محلية محدودة داخل اليونان إذ أن صاحب التقرير لم يبدها اهتمامًا فيما كتب.

الرب وبما أمدني به بما يكفي من دلائـل، حتى إنني تفهمتـه بعقلي دون أن أحتاج إلى التعامل معه– لأنه حينما قبَّلني متمنيًا لي السلام الذي لا يحمله في قلبه، فإن كورفو –وهي جزيرة عظيمة عـادةً مـا تضربهـا الهـزات الأرضيـة، وليس مرة واحدة فقط بل ثلاث مرات في نفس اليوم– شهدت زلزالاً. بعد أربعة أيام، علاوةً على ذلك –وبالتحديد في اليـوم الحـادي عشـر قبـل غـرة شهر يناير [الثاني والعشرين مـن ديسـمبر]– بينمـا كنـت أجلـس معـه على المائدة وأتناول الخبز معه وطأت قدمي قدمـه، فأسـفت الشـمس لهـذه الفعلـة التافهة حيث حدث كسوف لها[1] وحجبت أشعتها؛ وقـد أفـزع هـذا، لكـن هذا لم يغيره عما وقر في قلبه.

وبعد ذلك سوف أشرح ما فعلته معه انطلاقًا من الصداقة، ومـا نلتـه منه مكافأةً على ما فعلت؛ ففي طريقي إلى القسطنطينية أهديت ابنه ترسًا مـن أغلى أنواع التروس مطليًا بالزيت متقنًا صنعه، ذلك الترس كنت قد حصلت عليه منكما يا سـيديّ العظيمـين ضمـن الهدايـا الأخـرى التـي زودتمـاني بهـا لأقدمها لأصدقائي اليونانيين. وحاليًا، بعد العودة مـن القسـطنطينية، قدمـت إلى والده ميخائيل رداءً عظيم الثمن؛ وبعد كـل ذلـك كـان شـكره لي علـى النحو الآتي؛ كان نقفور قد كتب أمـرًا إلى ليـو رئيـس الحجـاب بأنـه بمجـرد وصولي إليه يتيح لي فرصة ركوب إحدى المراكب اليونانية دون تأخـير، غـير أن ليو لم يقم بما أمر بـه، إذ احتجزنـي لمـدة عشـرين يومًـا واكتفـى بإمدادي بالطعام، ليس على نفقتـه هـو وإنمـا كنـت أدفـع ثمنـه علـى حسـابي الخـاص. واستمر الوضع هكذا إلى أن جاء مبعوث من قبل رئيس الحجاب ليو المذكور

[1] لم يتأثر ليوتبراند بهذه الظاهرة الطبيعية النادرة الحدوث بينما أفزعت غيره من الرحال؛ وهذا يشير إلى أنه كان مُلمًا بقدرٍ من العلم عن الظواهر الطبيعية.

الذى أبدى تقديرًا له بسبب تأخيره لى. إلا أن هذا الرجل لم يستطع تحمل ملامتى له ونواحى وتحسرى، فانصرف بعد أن سلمنى إلى رجلٍ شرير غليظ الطبع تمامًا، وبلغ من السوء إلى حد أنه منعنى من شراء ما أحتاجه من مؤن، كما أنه وضع يده على سجادةٍ كانت معى تبلغ قيمتها جنيهًا فضيًا، وبعد مضى عشرين يومًا، ابتعدت عن هذا المكان، وبعد أن (ص٤٧٧) اجتاز قائد المركب أحد الرؤوس البرية فى البحر، أمره الرجل الذى سلبنى سجادتى بتركى على الشاطئ حتى يدركنى الموت جوعًا. وكان قد شرع فى ذلك لأنه فتش فى حقائبى بطريقة سيئة ليرى إذا كنت أحمل فيها أية أردية قرمزية، وحينما أراد أخذ أحدها، منعته. فآه منكم يا آل ميخائيل، ثم آه منكم يا آل ميخائيل، فأينما ذهبت وجدت منكم الكثير، وقابلت من أمثالكم العديد! ذلك أن حارسى فى القسطنطينية [وكان يدعى ميخائيل] سلمنى إلى سَمِيِّه ميخائيل، فمن رجل سيئ إلى آخر أسوأ، ومن الأسوأ إلى الوغد، إذ كان مرشدى أيضًا يدعى ميخائيل، وقد كان رجلاً ساذجًا حقًا، لكنه أحد الذين أضرونى بسذاجته بنفس المقدار الذى أضرنى به أكثرهم شرًا. غير أننى أخيرًا خلصت من أيدى أولئك الصعاليق الحقراء الذين سموا ميخائيل[1] كى أمثل بين أيديكما، [والواضح أن ليوتبراند أخذ يناجى القديس ميخائيل St. Michael[2] بهذه الكلمات] أما أنت يا ميخائيل العظيم، فإنك نصف

---

[1] من الذين كانوا يحملون اسم ميخائيل وبرزوا بين رجال نقفور قائده ميخائيل بورتزس Michael Bourtzes وقد أشارت المصادر الإسلامية إليه بأن نقفور فوقاس «قد رتب فى حصن بغراس رئيسًا يقال له ميخائيل البرجى ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته». وهناك أيضًا ميخائيل حاجب الإمبراطور. انظر : يحيى الأنطاكى، المصدر السابق، ص٣٨؛ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص٤٨، ٩٢.

Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 315.

[2] من الشواهد على امتداد التأثير الحضارى لبيزنطة فى جنوب إيطاليا اهتمام الأهالى بالقديسين والشهداء الشرقيين بالاحتفال بذكراهم فى كنائسهم، ومن ذلك احتفالهم بعيد القديس ميخائيل فى التاسع=

زاهد، نصف راهب، وأقول بل أقول لك بصدق، فإن حوض الماء الذى تنهل منه دائمًا حبًا فى القديس يوحنا المعمدان St. Sohn the Baptist[1] لن ينفعك، لأن الذين ينشدون الرب بطريقة غير قويمة، لن يستحقوا مطلقًا أن يستجيب لهم!... [قطع النص هنا بشكل مفاجئ].

= والعشرين من سبتمبر من كل عام. راجع : موس هـ. و. : المرجع السابق، ص٢١٩، كولتون ج. ج.: المرجع السابق، ص٨٥.

[1] هو النبى يحيى بن زكريا (عليهما السلام)؛ ذكر عنه أنه مهد الطريق أمام السيد المسيح فكانت ولادته قبل أن يولد السيد المسيح بستة أشهر، وكلاهما من نسل النبى هارون (عليه السلام) وقد عينت الكنيسة يوم ميلاده فى ٢٤ يونيو. ولمعرفة المزيد راجع : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق، مادة : يوحنا.

تقييم عام لتقرير ليوتبراند

هكذا ترك لنا ليوتبراند أسقف كرمونا وأحد مبعوثى أوتو الأول هذا التقرير الذى اتهمه المؤرخ جورج أوستروجورسكى Georges Ostrogorsky بأنه مجرد رسالة هجاء ليست لها قيمة بالنسبة لتاريخ الحضارة البيزنطية[1]. فى حين وصفه الأستاذ ستيفن رنسمان بأنه ساذج ونمام ومتحيز[2]. بينما خلص الأستاذ كير و. ب إلى آراء خصَّ بها تلك الشخصية فقال عنها : «إن حياة ليوتبراند كانت مكتظة بالأحداث، حيث تعرف على شخصيات بارزة فى زمنه وحاز على ثقة كبرائهم وشغل المناصب العليا بأنفة وكبرياء». وأما فيما يختص بكتاباته فنراه لم يخصص لأوتو الكبير مساحة واسعة فيها، فى حين اهتم بنقفور وشخصيته، وقد وجد المادة التى تناسب طريقة كتابته تمامًا ونجح فى تصوير الظروف والأحداث التى أحاطت بإقامته فى القسطنطينية وأظهر طبيعة البيزنطيين التى تتميز بالخيلاء والكبرياء وتعاملهم مع إمبراطورهم الذى رآه مقززًا ووصفه بمصطلحات سافرة[3].

بيد أنه بعد وقوف الباحث على التقرير ودراسته يرى فيه تقريرًا مهمًا ومفصلاً، ضمّنه صاحبه زخمًا من المعلومات، وذلك من خلال عباراتٍ اتسمت بالتحيز إلى سيديه وبلاده، ومن ثم فالباحث يتفق مع ما أورده ستيفن رنسمان فى هذا الصدد. كذلك تضمن التقرير تفاصيل المفاوضات التى أجراها بصفته وسيطًا بين الإمبراطورين الألمانى والبيزنطى، وعليه فيما يمكن قوله أن الصور البلاغية والسخرية والمرح التى أحاط بها شخصياته البارزة قد غلبت على نص التقرير، الأمر الذى قد يترك انطباعاتٍ خاطئةٍ لدى قرائه، غير أن ذلك لم يؤثر على ما ورد به من مادةٍ تاريخيةٍ ذات قيمة. وإضافةً إلى ذلك، فإن صاحب

---

(١) Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 241.

(٢) Runciman, S., Op. Cit., p. 4.

(٣) Ker, W.P., Op. Cit., p.p. 184 - 5.

التقرير يعد أحد أولئك الذين حاولوا إحياء التراث الأدبى الكلاسيكى بدليل تأثره بتلك الكتابات؛ وكان قد أشار هو نفسه إلى بعض مصادرها ومنها كتابات الفيلسوف أفلاطون والأديب الشاعر الرومانى تيرنس كما أحجم عن ذكر البعض الآخر مكتفيًا باقتباس عبارات مأثورة منها.

وعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية التى قضاها ليوتبراند فى القسطنطينية وقدّرها هو بنحو أربعة أشهر، إلا أنه وقف على كثير من الأمور الداخلية فى القصر الإمبراطورى وخارجه، كما نقل لنا رؤيته للمجتمع البيزنطى فى القسطنطينية، وكان أمامه متسع من الوقت فى طريق العودة للتعرف على بعض جوانب هذا المجتمع خارج العاصمة، وأتى بمعلومات غالبًا ما كانت دقيقة فى ثوبٍ من الكتابة المسلية الساخرة. ولذا كانت الفائدة التى عادت من خلال دراسة النص كبيرة منوَّعة، ومنها ما تبيّن بشكلٍ مباشرٍ من خلال عبارات السفير، ومنها ما تم تحصيله من خلال استقراء النص بُغية الوصول لما وراءه من قضايا وأفكار غطت جوانبًا من تاريخ الدولة البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى، أو حتى التاريخ العام لها.

والملاحظ أن تقرير ليوتبراند كان قد اتجه منذ البداية إلى إظهار كراهيته للإمبراطور نقفور الثانى، غير أنه ما لبث أن انطلقت تلك الكراهية على أفراد البيت الحاكم من آل فوقاس ورجال البلاط الإمبراطورى، وتصاعدت لتمتد وتشمل جميع اليونانيين والدولة البيزنطية، وعلى هذا تعددت الصدامات الكلامية وتعارضت الأفكار، مما أدى إلى تفاقم الخلاف. ومن الشواهد على ذلك ما وقع من نقاشٍ حادٍ حول حمل أوتو للقب الإمبراطور وإنكار نقفور لذلك، كما اصطدم الطرفان حول شرعية خضوع روما وغيرها من مدن جنوب إيطاليا للإمبراطور الألمانى، كما اشتكى ليوتبراند من تفضيل وفود دبلوماسية أخرى عليه من قِبَل الإمبراطور البيزنطى، ومن وضع قيود على تحركاته لدرجة أنه وصف حارسه بمعذبه ووصف مسكنه بالسجن واشتكى

أيضًا من معاملته حينما سمح له نقفور بشراء الملابس والمنسوجات الحريرية ثم تراجع عن ذلك، فرماه ليوتبراند بالجشع وعايره بالهزيمة أمام المسلمين، وسلط الضوء على قبح صورته. ومن ناحية أخرى، اتهم ليوتبراند البيزنطيين بأنهم ضعفاء ومتكاسلون ونظم فيهم شعرًا هجائيًا، وحتى الرهبان ورجال الدين فقد كانوا عرضة هم أيضًا للانتقادات اللاذعة، وهكذا فإن الروح التى غلب عليها العداء والكره للإمبراطور البيزنطى ورجاله بل وشعبه تدفع إلى القول بضرورة التزام بعض الحذر فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة ببيزنطة.

وفى ضوء ما سبق يمكن الوقوف على مادة تاريخية قيمة بعد استخلاصها مباشرةً من خلال التقرير المقدم تتعلق بصفةٍ خاصة بالناحية الحضارية؛ أما تلك التى تتعلق بالناحية السياسية فقد تأتى فى مرتبة تالية؛ ففيما يتعلق بمدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية، أدلى ليوتبراند بشهادته عنها، فكانت لها قيمتها للتعرف على ما وصلت إليه هذه المدينة من عظمةٍ فى أواسط القرن العاشر الميلادى؛ إذ أشار إلى رفاهية القصور الإمبراطورية وغناها واتساع مدينة القرن الذهبى وثروتها، وعرّفنا بالميناء البحرى الذى يخدم العاصمة حيث حُدِّد بأنه ميناء أنكونا، ففيه رست السفينة التى أقلت السفير ورفاقه غير أن صاحب التقرير بالغ إلى حدٍ ما فى رسم صورة قاتمة للعاصمة خلال زيارته الثانية لها وبالأحرى إبان فترة حكم نقفور والواضح الكراهية هى التى دفعته لذلك.

وهناك مادة تضمنها التقرير أفادت فى الوقوف على جانب من الاقتصاد البيزنطى، ومن ذلك ما أورده بشأن حادثة شراء الأردية الحريرية باسم الإمبراطور الألمانى أوتو الكبير، فضلاً عن رجال الدين فى الغرب الأوربى، فأظهر الحديث عنها أهمية تلك الصناعة فى القسطنطينية ودخولها كعنصر مهم فى تجارتها الدولية، وكان ليوتبراند دقيقًا فيما ذكره فى هذا الصدد لتطابقه مع ما ورد فى كتاب والى المدينة، وهو مصدر بيزنطى معاصر فى الشأن ذاته،

وكانت الفائدة أكبر لهذه المادة حينما أشار إلى علاقة التجار البنادقة بهذه السلعة ودورهم فى نقلها إلى الغرب الأوربى. وفى موضع آخر، تحدث التقرير عما أصاب القسطنطينية من مجاعة أثناء تواجد ليوتبراند فيها، الأمر الذى جعل من الممكن الوقوف على حالة الاقتصاد البيزنطى المتردية جراء حروبها المتواصلة مع القوى المجاورة. واستتبع التقرير ذلك بالإشارة إلى وضع العملة البيزنطية وعجزها عن شراء السلع بالشكل المألوف، مما أكد على أنها تعرضت لما يعرف فى اقتصاد العالم اليوم بالانخفاض فى قيمتها الشرائية.

وقد احتل الدين حيزًا هامًا من التقرير؛ ولكن هذا الحيز لم يتناسب فى حجمه مع طبيعته الوظيفية بصفته أسقفًا، وهذا فى حد ذاته أعطى للمصدر أهميةً إضافية. وفيما يتعلق بهذا الجانب، تناول التقرير الصفة الدينية، وجانبًا من الواجبات التى كان ينبغى على الإمبراطور البيزنطى النهوض بها مثل قيادته وإشرافه على المواكب المقدسة والاحتفالات والمواعظ الدينية التى تلقى فى المناسبات، كاستقبال السفراء، حيث كان ليوتبراند منهم. ونلحظ الثقافة الدينية لصاحب التقرير فى تأريخه لبعض الأحداث التى كانت قد وقعت أثناء زيارته حينما حدد حدوثها بمناسباتٍ دينية؛ مثل ذكرى صعود النبى إلياس التى صادفت يوم مقابلته مع الإمبراطور نقفور وكذلك ذكرى يوم عيد رفع مريم العذراء والدة الرب المقدسة إلى السماء، وحدده بأنه اليوم الذى حضر فيه رسولان من قِبَل البابا يوحنا الثالث عشر برسالة إلى نقفور. كما نلمس هذه المسحة الدينية فى تحديد البقاع، ومن ذلك مدينة بتراس فى آسيا الصغرى بأنها هى التى شهدت تعذيب الحوارى أندرو، ولعله قصد بذلك مواساة نفسه لما عاناه فى رحلته. وأخيرًا اهتم التقرير بالتعرض لحياة الرهبان البيزنطيين وسلوكهم داخل أديرتهم.

وفيما يختص بالجانب الاجتماعى، نجد التقرير قد مس بعضًا من هذا الجانب، ومن ذلك الحديث عن الاحتفالات وما يصاحبها من مواكب مقدسة

ودور الإمبراطور والجيش فيها. ومن ناحية أخرى كرر التقرير الإشارة إلى الأطعمة السائدة فى المجتمع البيزنطى فى القسطنطينية، وقد برز من بينها الأسماك واللحوم المشوية. كما يُفهم أن البيزنطيين أحسنوا تقديم أطعمة شهية وأطباق متميزة لضيوفهم بل تفوقوا فى ذلك. وعلاوة على هذا تناول التقرير معلومات عن الملابس المستخدمة فى بيزنطة ومقارنتها بالملابس المستخدمة فى ألمانيا وتعرض لما يميز الذوق العام فى المجتمعين فى هذا الصدد، فكانت القبعة على سبيل المثال تميز الرجل الغربى، بينما يرتدى الرجل البيزنطى أردية ذات أكمام طويلة تعرف بالتُنِيك، أما الرجل البلغارى فقد ميزته حلاقة شعر رأسه.. وهذا وغيره سلط الضوء على النهضة الحضارية التى عاشتها الإمبراطورية فى عهد الأسرة المقدونية الذهبى.

وفى خارج القسطنطينية كان ليوتبراند شاهد عيان على بعض جوانب المجتمع البيزنطى، إذ وقف بنفسه على أوضاع الرهبان والأديرة، ونقل لنا صورةً عنهم تضمنت انطباعاته التى تكونت من جراء احتكاكه بهم إذ أدرك ما وقعوا فيه من ضائقة مالية بسبب فداحة الضرائب التى فرضها الإمبراطور نقفور عليهم حتى بلغت مائة قطعة ذهبية عن كل كنيسة سنويًا. كما سجل التقرير شيئًا عن حياتهم اليومية وطريقة الإعاشة، وقارن بين أوضاعهم تلك وأوضاع الرهبان ورجال الدين فى الغرب لكنه استنكر كثيرًا من تصرفاتهم حتى وصفهم بأنهم بمثابة أصحاب حانات أداروها لصالحهم وأشار إلى ما تعرضوا له من مشاكل ووطأة الضرائب التى بلغت مائة قطعة ذهبية عن كل كنيسة مما عكس سياسة الإمبراطورية الدينية إبان عصر نقفور الثانى، فأبرز رهبنة الشرق الأرثوذكسي أكثر تقشفًا من مثيلتها في الغرب.

كشف التقرير باقتدار عن خاصيةٍ من خصائص العسكرية البيزنطية؛ ألا وهى تركيب الجيش، حينما تساءل ليوتبراند فى إنكار عن نوعية هذا الجيش لتألُّفه من عناصر متباينة مثل الهنغاريين الذين اختار نقفور من بينهم أربعين رجلاً

شكلوا جانبًا من حرسه الخاص، وبيّن التقرير أيضًا أن البنادقة والأمالفيين كان لهم وضعٌ متميزٌ؛ إذ كان يُختار من بينهم العناصر القيادية في الجيش، وبالتالي فإن نقد التقرير لتشكيل الجيش البيزنطي على هذا النحو في محله؛ إذ كان عدم تجانس العناصر المؤلفة له وضمه لكثير من المرتزقة سببًا أساسيًا في المشاكل وبعض الهزائم التي عانتها العسكرية البيزنطية على مدى عدة قرون؛ إلا أن ليوتبراند أخذ في أكثر من موضع يلصق بهذا الجيش بعض الصفات، مثل الجبن والضعف والرعونة في القتال وغيرها تحت قيادة نقفور، وهذه صفات تتنافى مع ما أنجزه من انتصاراتٍ في عصر هذا الإمبراطور. ويبرز أمامنا في هذا الموضع ما ذكره المؤرخ المعاصر سيدرينوس عن القوة العسكرية البيزنطية حيث أورد عنها أنها وصلت إلى حد الكمال وكرست نفسها لقادتها، وكانت تتمتع بروحٍ معنويةٍ مرتفعةٍ أيضًا لقد كان من الصعب الوقوف أمامها أو مقاومتها. وإنه لمن السهل علينا أن ندرك كيف أن قدرة وفاعلية مثل هذه القوة كان لابد أن يسيطر عليها ويوجهها إمبراطور يفهم ويؤمن تمامًا بفن الحرب والقتال[1]. وبذلك يتبين أن صاحب التقرير استغل نقطة الضعف الواضحة في الجيش البيزنطي لتشويهه وتجريده من مقومات القوة فيه وقدرته على إحراز الانتصار تحت قيادة قائد شهد له أعداؤه بالكفاءة مثل نقفور الثاني.

وفي المجال العسكري أيضًا، سجل ليوتبراند معلومات ذات قيمة عن أحداث غلب عليها الطابع الحربي؛ منها تلك التي تتعلق باستعدادات الأسطول البيزنطي لشن غارة بحرية على قوات أوتو الكبير في جنوب إيطاليا، وكان صاحب التقرير قد رصد تحركات تلك السفن بنفسه في القسطنطينية وحدد نوعيتها وعددها من خلال نافذة المسكن الذي أقام فيه هناك. كذلك تناول التقرير بعضًا من تفاصيل المعركة البحرية المعروفة في التاريخ الإسلامي بواقعة المجاز ٩٦٥م / ٣٥٤هـ، وسجل وقائع الهزيمة وحدد المصير الذي آل إليه قادتها

(1) Cedrenus, Georgius, Op. Cit., p.p. 373 - 4.

البيزنطيين بين قتلٍ وأسر، كما حدد تاريخ المعركة تحديدًا صحيحًا. ويحسب لصاحب التقرير أنه تمكن من التمييز بين الأطراف الإسلامية الذين دخلوا فى حروبٍ ضد الإمبراطورية البيزنطية، حيث أشار إلى الخراسانيين من أتباع الدولة البويهية باسم الآشوريين وأشار إلى شمال الشام وأعالى الفرات بالعرب أو بالمسلمين Saracens والفاطميين فى صقلية وجنوب إيطاليا بالمسلمين، وإلى حاكمهم بالملك الأفريقى، وهذا بدوره يؤكد على أن ليوتيراند لم يكن برجل الدين الساذج المقتصر على علمه الدينى، وإنما كان على درايةٍ بأمورٍ أخرى إضافية.

ومن الناحية السياسية، نجد أن أقصى ما استطاع أوتو الكبير الحصول عليه من وراء سفارة ليوتبراند إلى القسطنطينية زوجة بيزنطية لابنه أوتو الثانى وهى ثيوفانو. ويلاحظ أن ذلك لم يتم فى عهد الإمبراطور نقفور؛ إذ أنه بعد وفاته حرص خليفته يوحنا الأول تزيميسكس على عقد تحالف مع أسرة أوتو الألمانية فى إيطاليا متغاضيا عن غزوهم كلابريا وهجومهم على نابلى وتارنتم، وتم الصلح عن طريق إتمام هذا الزواج السياسى فى عام ٩٧٢م. ولكننا نجد تفاوتًا بين المراجع فى تعريف هذه الزوجة؛ فيرى بعضها أنها الأميرة البيزنطية ثيوفانو ابنة الإمبراطور رومانوس الثانى[1]، فى حين يذكر بعضها الآخر أنها كانت مجرد ابنة أخ الإمبراطور يوحنا تزيميسكس وكانت تدعى ثيوفانو أيضًا[2]

---

(1) Schlumberger, G., Op. Cit., p. 464.

لويس ر. أرشيبالد : المرجع السابق، ص٣٠٠؛ رنسمان س. : المرجع السابق، ص١٩٠.

(2) Ostrogorsky, G., Op. Cit., p. 321; Kelly, J.N.D., Op. Cit., p.p. 129 - 30.

وجدير بالذكر أن المؤرخ أوستروجورسكى كان قد درس هذه الجزئية، وخلص إلى التأكيد على هذا الرأى. راجعه فى :

Loc. Cit., n.1

وعلى كلٍ، فقد أتت الزيجة ثمرتها حيث أنجبت ثيوفانو ولدًا هو أوتو الثالث كان بدوره يرغب فى الزواج من أميرة بيزنطية، غير أن الموت عاجله فى سنٍ مبكرةٍ عام ١٠٠٢م. انظر : بينز نورمان : المرجع السابق، ص١٣٢.

، بيد أن ليوتبراند سجل أنه لقى معارضةً شديدة فى أن تكون العروس هى ابنة رومانوس الثانى؛ ومن ثم لم تكن كما أراد أوتو الكبير من البيت الإمبراطورى نفسه.

لم يكتفِ التقرير بما قدمه من مادةٍ تاريخيةٍ أصيلة وقيمة عن بيزنطة إنما مكننا من الوقوف على حال مجتمعاتٍ أخرى، خاصة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن الطبيعى أن تأتى شبه الجزيرة الإيطالية فى صدارة هذا الاهتمام بحكم انتمائه لها بصفته لمبارديًا. وفى هذا الصدد تذكر دراسة انصبت على الفترة الزمنية التى عاصرها ليوتبراند أن كتاباته لها أهمية كبرى، وأنها خير ما يرصد من كتابة تاريخية فى تاريخ الغرب اللاتينى، وخاصةً إيطاليا، خلال أواسط القرن العاشر الميلادى حتى وفاته فى عام ٩٧٢م[1] . وفيما يختص بما ورد فى التقرير عن هذه البلاد فقد أمدنا بمعلوماتٍ مهمةٍ عن النشاط التجارى لمدينة البندقية والنهج الذى اتبع فى تسويق السلع، إذ صارت البندقية تتهرب من القيود المفروضة على شحن الحرير الممنوع تصديره، وذلك بالتواطؤ مع موظفى الجمارك البيزنطيين. وهذه المعلومات على سبيل المثال ساهمت بشكل أو بآخر فى الحكم على موقف مدن إيطاليا الجنوبية التجارى، وخاصةً البندقية، مع الدولة البيزنطية.

وفى إيطاليا أيضًا، وتحديدًا فى روما حيث المقر البابوى، أتى ليوتبراند بمادةٍ تعد أساسية فى تسليط الضوء على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وعلى من جلسوا على عرشها خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، وفى مجملها يصبح من الممكن التعرف على أوضاع الكنيسة التى آلت إلى التردى فى ذلك الوقت، ومدى ما وصل إليه البابوات السابقون على يوحنا الثانى عشر من ضعف، وكيف وقعوا تحت تأثير الأمراء اللمبارديين؛ إذ أكد التقرير على سوء حالة البابوية فى ظل تلك الظروف وعبر عن ذلك بأن النساء العاهرات تحكمن

(1) Runciman, S., Op. Cit., p. 4.

فى البابوية وفى الحقيقة، لم يتحر السفير الدقة فى هذا الشأن إذ كانت هناك أسباب أخرى جعلت البابوية تعانى مما لحق بهما، مثل نظام انتخاب البابا الذى استغله بعض العابثين للإتيان بإناس غير مناسبين لاعتلاء الكرسى البابوى وأشار التقرير إلى أن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس استغل ذلك الضعف من أجل انتزاع بعض المراسيم البابوية بشأن ارتداء صغار رجال الدين والعلمانيين للأردية الأرجوانية التى كانت قاصرة على كبار رجال الدين. وبيّن لنا التقرير أيضًا جانبًا من العلاقة بين البابوية وبيزنطة فى عصر البابا يوحنا الثالث عشر فأشار إلى خضوع البابوية وللإمبراطور الغربى ودعوة الإمبراطور البيزنطى بإمبراطور اليونان تقليلاً من شأنه، وتعرض لرد الفعل من قِبَل رجال البلاط البيزنطى حينما أقدموا على إساءة معاملة رسولى البابا المذكور.

وفى ألمانيا ذاتها، اهتم ليوتبراند بالإشارة فى أكثر من موضع فى عزة وكبرياء إلى العناصر السلالية التى تشكل الإمبراطورية، وذكر منها اللمبارد والسكسون والفرنجة واللوثرنجيين والبافاريين والسوابيين والبرجنديين، مبرزًا العنصر السكسونى الذى ينتمى إليه الإمبراطور أوتو الكبير وأسرته. وكان انتماء صاحب التقرير السياسى واضحًا للبلاط الإمبراطورى الألمانى؛ إذ رأى أوتو الكبير وابنه أوتو الثانى، وهما من الأباطرة الذين يستحقون أن يخلفوا عرش قسطنطين الكبير، وهما أيضًا من حُماة الدين والكنيسة، وقد بدا هذا الشعور فى أكثر من موقف، ومن ذلك ما أبداه من إعجاب بالجيش الإمبراطورى وشجاعة الجند وقدرتهم القتالية العالية.

انعكس الانتماء السياسى لصاحب التقرير على توجهاته التى بدى فيها وقد تعصب للإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب، وساقه هذا إلى الحديث عن التكتلات السياسية العالمية ووضع الإمبراطورية داخلها. لكنه عبر عن ذلك بما يتفق مع رجل حمل ثقافة القرن العاشر الميلادى؛ إذ بنى السفير أفكاره على ما ورد بكتب النبوءات فى بيزنطة وكتابات هيبوليتوس الأسقف الصقلى

فكانت له رؤيته الخاصة وتفسيره الذى يتفق مع انتماءاته السياسية؛ فبينما اعتقد هيبوليتوس فى نبواءته ومن ورائه البيزنطيون أن بيزنطة هى بمثابة الأسد الذى سيتمكن مع ولده، ممثلاً فى الفرنج، من طرد وربما سحق المسلمين الذى رمز لهم بالحمار الوحشى؛ رأى ليوتبراند ضرورة تعديل هذه النبوءة بأن يصبح الأسد هو أوتو الكبير أما ولده فهو أوتو الثانى، ووضع نقفور فى موضع الحمار الوحشى الذى لابد وأن يسحق، وبرر رؤيته تلك باستخدام المنطق والحجة. وهكذا خطى صاحب التقرير خطوة تجاه التعرض إلى ما يُدعى فى العصر الحديث بعلم الجيوبولوتيكا Geopolotica الذى يهتم بدراسة التكتلات السياسية والعسكرية وموازين القوة الناجمة عن تأثير الجغرافيا والسياسة.

وفى ضوء تقييم التقرير المنسوب إلى ليوتبراند فأرى ونحن فى نهاية دراسته التأكيد على صفته الدبلوماسية، ومن هذا المنطلق فما قد جاء بين ثناياه يُعد مادةً خصبة للوقوف على تاريخ الدبلوماسية فترة العصور الوسطى فى أوربا، وكذلك للوقوف على نهج بيزنطة السياسى فى علاقاتها مع غيرها من الدول؛ فلقد تعرض التقرير فى مواضع عدةٍ إلى الحديث عن المقابلات الرسمية مع رجال البلاط البيزنطى وخاصة مع ليو فوقاس شقيق الإمبراطور نقفور، الذى تولى القيام بالترتيبات اللازمة لاستقبال ليوتبراند بصفته سفيرًا أجنبيًا، كما سلط الضوء على المراسم المتبعة، مما ساعد على تفهم بعض جوانب الجهاز الدبلوماسى البيزنطى، وبعض أساليب الإدارة، ومنها واجبات مستشار الإمبراطور الوظيفية تجاه المبعوثين الأجانب، ومنها أيضًا أن استقبال الإمبراطور للسفراء كان يتم حسب ترتيب بلادهم فى الأهمية، وكذلك كانت المعاملة السيئة للسفير وإلقاء سفيرى البابا يوحنا الثالث عشر فى السجن، بعد الضرب المبرح لهما، من الشواهد على أنه لا حصانة دبلوماسية لمن يقلل من شأن الإمبراطور.

وقد أكدت السفارة فى هذا الجانب على مهارة البيزنطيين الدبلوماسية؛

إذ ثبت أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية سارت فى عدة اتجاهات من أجل حماية مصالحها والتأثير على الشعوب الأخرى، تفاوتت تلك الاتجاهات بين استخدام القوة أو بذل المال أو زرع العداوات السياسية بين مختلف الدول، أو اللجوء إلى أساليب ملتوية، وذلك عن طريق عقد الاتفاقيات التجارية، خاصةً مع مدن جنوب إيطاليا؛ ولكى تضمن الدولة البيزنطية ارتباط الشعوب الأخرى بها، كانت تعطى ألقابًا وامتيازاتٍ للأمراء وكبار الشخصيات بها[1]، كذلك سعت دائمًا إلى إبهار المبعوثين والزوار الذين يفدون إليها[2]، وفى هذا الصدد يخبرنا تقرير ليوتبراند بألوان من الإغراءات البيزنطية، ومنها ما كان يقدمه الإمبراطور ورجال البلاط من هدايا لضيوفهم تتمثل فى ملابس مصنوعة من الحرير، وكذلك أنواع من السجاجيد الفاخرة، أما الضيوف مَن الأمراء أو مبعوثيهم فقد كان يتم إغراؤهم بالزواج من سيدات يونانيات من نسل العائلات رفيعة الشأن، وربما كن قد ولدن فى الغرفة الأرجوانية. وبهذه السياسة نجحت بيزنطة فى تأجيج مشاعر الحقد والغيرة والعداوة بين جيرانها بما يتفق مع توجهاتها السياسية.

وفى إطار تلك السياسة مارست بيزنطة أسلوب إظهار عظمتها وقوتها لمن يأتيها من زوارٍ بغرض إبهارهم والتأثير عليهم، وفى العادة كانت تنزلهم بالغرف المذهبة بالقصور حيث الملابس الفاخرة والمصوغات القيمة والسجاد الفاخر وكل ما يبرز الثروة والنفوذ. وخير مثل على ذلك ما أحاط سفارة أولجا **Olga** (خريف عام ٩٥٧م) أميرة كييف **Kiev** إلى بلاط الإمبراطور قسطنطين السابع، التى لقيت كل حفاوةٍ وتكريم. وعادةً ما كان الضيوف الكبار يزورون الكنائس العظيمة والقصور الرائعة ويرون بأنفسهم ثروة البازارات ودقة الصناعات[3]. بيد أن ليوتبراند لم ينعم بكل هذا التكريم، بل وضع تحت رقابةٍ

---

(١) Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p. 57.

(٢) Bailly, Auguste, Op. Cit., p. 275.

(٣) Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, p.p. 59 - 60.

مشددة، وقُيدت حريته، وكثيرًا ما اشتكى من المضايقات والإهانات التى وُجِّهت له. وتفسير ذلك أن الأسلوب الذى اتبع معه يُعد أسلوبًا آخرًا من أساليب السياسة البيزنطية للتأثير على الأجانب وذلك لإضفاء الإكبار والهيبة عليهم عن طريق التعنيف والتشدد، خاصةً فى حالة ما إذا لم يُبْدِ الضيوف قدرًا كافيًا من اللياقة وحسن السلوك، وهو ما بدر من صاحب التقرير بالفعل.

لقد اتضحت معالم هذا الأسلوب المتشدد من قِبَل البلاط البيزنطى فى مواقف عدة، لعل أبرزها رفض زواج أميرة ولدت فى الغرفة الأرجوانية، وهى الأميرة ثيوفانو، من حاكم أجنبى حتى لو كان إمبراطورًا؛ واعتبر طلب ليوتبراند فى هذا الصدد أمرًا سخيفًا غير معقول كذلك التزم موظفو الإدارة البيزنطية بمراسم معددة فى التعامل مع السفير خاصة فى مجال اقتناء الملابس العريربة وفى مجال تحميله برسائل لكلٍ من الإمبراطور الألمانى وبابا روما فميزوا الأولى بالختم الذهبى بينما ميزوا الأخرى بالختم الفضى. والواضح أن السياسة البيزنطية فى هذا الاتجاه أيضًا قد نجحت، بدليل أن ليوتبراند نفسه لم يُخْفِ انبهاره بأعظم مدن العالم ألا وهى القسطنطينية، وبما تقدمه من صناعات انفردت بإنتاجها. ولكن إذا ما كان ذلك النجاح قد اقتصر على الجانب الشخصى فى التأثير على السفير، إلا أن الأحداث التالية المثبتة فى كتب التاريخ المتخصصة فى التاريخ البيزنطى تؤكد أن الظروف السياسية وأسلوب الحكم فى القسطنطينية كانت هى المحرك الأساسى للأحداث فى تلك الفترة، و لم تكن الدبلوماسية كافية لتوجيه سياسة الإمبراطورية الرومانية المقدسة تجاه إمبراطورية الشرق فى بيزنطة.

هكذا أتى ليوتبراند أف كرمونا بمادةٍ غزيرةٍ تخدم التاريخ الحضارى والسياسى للمجتمعين البيزنطى والرومانى الغربى؛ إلا أنه أحيانًا ما يؤخذ عليه عدم تحريه الدقة فى بعض ما ذكره من معلومات، إما من باب التعمد تحقيرًا لشأن البيت الحاكم هناك، وإما بدافع من الحقد والضغينة كما سلف ذكره. إلا أنه يمكن التماس بعض العذر لصاحب التقرير لما كان قد أصابه من سوء

معاملة وما واجهه من مشاكل جعلته لا يـرى فـى بيزنطـة ولا فـى إمبراطورهـا نقفور الثانى محاسن حتى تلك الواضحة منها التى تتعلق بالحنكة العسـكرية لهـذا القائد وقدرته على إدارة البلاد والأخذ بها نحـو النصـر والتوسـع. ويظـل نـص التقرير مصدرًا جديرًا بالرجوع إليه حين التـأريخ للمجتمعـات التـى تناولهـا فـى الفترة الواقعة فى أواسط القرن العاشر الميلادى.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع الأجنبية

١ – المصادر الأجنبية :

- Cedrenus, Georgius, Synopsis Historiae, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinorum, Bonn 1838 - 9, II.
- Constantine Porphyrogentus, De Adminstrando Imperio, trans. by Jenkins, R.J.H., Washington, 1967.

اعتمدت على الترجمة العربية للكتاب: قسطنطين السابع بورفـيروجينتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليـق : محمـود سـعيد عمـران، بـيروت ١٩٨٠م.

- De Ceremonis, Aulae Byzantinae, ed. Bekker, Corpus Scriptorum Histoire Byzantine, Bonn, 1829 - 1830.
- Leo VI, Eparchikon Biblion, The Book of the Perfect, trans. by Boak, A.E.R., in J.E.H.B.I., 1929

اعتمدت على الترجمة العربية للكتاب : ليو السادس، كتاب والى المدينـة، تعريب وتعليق : السيد الباز العرينى، مجلة كلية الآداب، جامعة القـاهرة، المجلد التاسع عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧، (ص١٣٢ – ١٨٧).

- Liutprand of Cremona, A Report of His Mission to Constantinople, 968 A.D., ed. and trans. by Henderson Ernest F., in Select Historical Documents of the Middle Ages, London 1910, Appendix p.p. 441 - 77.
- Procopius, De Bello Vandalico, English translations by Dewing, vol. III.
- Psellus, M., Chronographia of Michael Psellus, trans. from the Greek by E.R.A. Sewter, London, 1953.

- Theophanes, The Chronicle of Anni Mundi 6095 - 6305 (A.D. 602 - 813), Eng. trans. with an introduction and nos. by Turtledove Harry, Pennsylvania, 1982.
- Theophanus, Continuatus, Chronographia, ed. Corpus Scriptorum Historiae Byzantinorum, Bonn, 1838.

٢- المراجع الأجنبية :

- Bailly, Auguste, Byzance, Paris, 1939.
- Bury, J.B., A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I (A.D. 802 - 867), London, 1912.
- Christie Neil, The Lombards (The Ancient Longobards), fst. publ., U.S.A., 1995.
- Coulton, G.G., Life in the Middle Ages, IV vols,Cambridge,1928.
- Davis, R.H.C., A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis, London, Second Published, 1958.
- Diehl, Charles, Byzance Grandeur et Décadence, Paris.
  - Figures Byzantines, Première série, Paris, 1922.
  - History of the Byzantine Empire, trans. from French by Georges B. Ives, New York, 1945.
- Diu Samuel, Roman Society in the Last Century of the Western Empire, New York, Second ed., 1899.
- Duffy, Eamon, Saints and Sinners, A History of the Popes, Yale University. Press, 1997.
- Encyclopedia Americana, International Edition, 30 vols, New York, 1976.
- Fichtenau, Heinrich, The Carolingian Empire, Trans. by Munz, Peter, Oxford, 1957.
- Jerry, Jacques, Hérésies et Factions dans l'Empire Byzantin du IVème au VIIème siècle, Le Caire, 1968.

- Kelly, J.N.D., The Oxford Dictionary of Popes, 1996.
- Ker, W.P., The Dark Ages, vol. I, ed. in periods of European literature, 8 vols, by Saintsbury, London, 1904.
- Necipogly, N., Economic Condition, ed. in Constantinople and its Hinterland, by Cyril Mango, Cambridge, 1995, p.p. 157 - 167.
- Nicolescu, Corina, Les Derniers Tissus de Tradition Byzantine, ed. dans Etudes Byzantines et Post-Byzantines, I, publ. Stanescu, Eugen et Tanasoca, Nicolae-Serban, Bucuresti, 1979.
- Ostrogorsky, G., Histoire de l'Etat Byzantin, trad. française de Gouillard, J., Paris, 1977.
- Painter, Sidney, Mediaeval Society, Second Print, New York, 1953.
- Runciman, S., The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign, Cambridge, 1963.
- Schlumberger, G., Un Empereur Byzantin au Dixième siècle Nicéphore Phocas, Paris, 1890.
- Schmeidler, Bernhard, Franconia's Place in the Structure of Mediaeval Germany, Ed. and Trans. from German by Barradough Geoffrey in Mediaeval Germany 911 - 1250, Essays by German Historians, II vols, Oxford, 1948, Second Edition.
- Simpson, D.P., Cassell, Latin-English, English-Latin, London, 1959.
- Tout, T.F., The Empire and the Papacy, London, 1909, Period II.
- Vasiliev, A.A., The Byzantine Empire, Madison, 1952.

ثانيًا : المصادر والمراجع العربية والمعربة

١- المصادر :

- ابن الأثير (عز الدين أبـو الحسـن علـى الشـيبانى، ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ، ١٢ج، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

– ابن مسكويه (أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب، ت٤٢١هـ / ١٠٣٠م) : تجارب الأمم، جزءان، نشر امدروز هـ. ف.، القاهرة ١٣٣٢-١٣٣٣هـ/ ١٩١٤-١٩١٥م.
– ابن منظور : (كمال الدين أبو الفضل بن حبقة عبد منظور، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م – ٧١١هـ / ١٣١١م) : لسان العرب، ٦ج، القاهرة، د. ت.
– الجاحظ : (أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) (ت٢٥٥هـ / ٨٦٨م) : كتاب الحيوان، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، ٨ج، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.
– الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، ت أواخر القرن التاسع الهجرى/ القرن الخامس عشر الميلادى) : منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار خاصة بالجزر والبقاع الإيطالية، تحقيق امبرتورتيزيتانو، مجلة كلية الآداب، القاهرة، المجلد الثامن عشر، الجزء الأول، ١٩٥٦م.
– كمال الدين بن أبى جرادة (ت٦٦٠هـ) : زُبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، طبعة أولى، ٢ج، دمشق ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
– يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ يحيى الأنطاكى، بيروت ١٩٠٩م.
– صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩م.

٢- المراجع العربية والمعربة :

– أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية، سركوز ١٣٦٥هـ.
– أسد رستم : الروم، جزءان، بيروت ١٩٥٥- ١٩٥٦م.
– إسحق عبيد : الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة فى "مدينة الله"، القاهرة ١٩٧٢م.
– روما وبيزنطة من قطيعة نوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤م، القاهرة ١٩٧٠م.
– السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ٣٢٣ – ١٠٨١م، بيروت ١٩٨٢م.

- تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٨م.
- السيد عبد العزيز سالم : البحرية المصرية فى العصر الفاطمى، نشر فى تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٣م.
- أندرو ملر : مختصر تاريخ الكنيسة من البداية إلى القرن العشرين، ٢ ج، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٣٣م.
- أومان شارلز : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة : مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م.
- بطرس عبد الملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدسى (د.ت).
- بينز نورمان : الإمبراطورية البيزنطية، تعريب : حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠.
- جورج حبيب بباوى : المعمودية فى الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية، (دراسة للعقيدة والطقس فى القرون الخمسة الأولى)، الكتاب الأول، نشر : الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، الإسكندرية (د.ت).
- جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ - ١٤٥٣م)، الإسكندرية، ١٩٩٤.
- مجمع الإسكندرية فى العصر المسيحى (حوالى ٤٨ - ٦٤٢م) فى كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور، الإسكندرية ١٩٧٥م.
- حاتم الطحاوى : بيزنطة والمدن الإيطالية (العلاقات التجارية)، (١٠٨١ - ١٢٠٤)، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م.
- حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م.
- درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤م.
- ديفز كارلس : شارلمان : ترجمة : السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩م.

- ديفز هـ. و. : أوربا فـى العصـور الوسـطى، ترجمـة : عبـد الحميـد حمـدى، القاهرة ١٩٥٨م.
- رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، ٤ ج، القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٣م.
- رنسمان س. : الحضارة البيزنطية، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه: زكى على، القاهرة ١٩٦١م.
- سعيد عبد الفتـاح عاشـور : أوربـا العصـور الوسـطى (التـاريخ السياسـى)، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٩٥م.
- سيد الناصرى : الإغريق تاريخهم وحضارتهم، القاهرة ١٩٩٦م.
- شازوت شارل: القديس غريغوريوس الكبير، تعريـب: رفائيل نخلة اليسـوعى، القاهرة ١٩٦٥م.
- عمر كمال توفيق : الإمبراطور نقفور فوقاس واسـترجاع الأراضـى المقدسـة (٩٦٣ - ٩٦٩م) الإسكندرية، فبراير ١٩٥٩م.
- على أحمد محمد السيد : رحلـة برنـارد الحكيـم إلى مصـر والشـام (٨٦٧ - ٨٧٠م / ٢٥٤ - ٢٥٧هـ)، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، العـدد ٢٢، ١٩٩٦م.
- فازيليف : العرب والروم، ترجمة : محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة د.ت.
- كاهن كلود : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة : أحمد الشـيخ، القاهرة ١٩٩٥م.
- كولتون ج.ج. : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق : جوزيف نسيم يوسف، الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٨٣م.
- لويس ر. أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فـى حـوض البحـر المتوسـط، ترجمة : أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم : محمـد شـفيق غربـال، القـاهرة ١٩٦٠م.
- محمد كامل عياد : تاريخ اليونان، دمشق ١٩٨٥م.

- محمود سعيد عمران : مقالات فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، الإسكندرية، ١٩٩٨م.
- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل فى التاريخ الحربى والسياسى) الإسكندرية ١٩٨٣م.
- معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٩٨م.
- موس هـ. و. : ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ - ٨١٤م، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة : السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٦٧م.
- ميشيل جرجس : الكنيسة المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.
- نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، القاهرة ١٩٧٣م.
- هايد ف. : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة : أحمد رضا، مراجعة : عز الدين فودة، القاهرة ١٩٩٤م.
- هيسى ج.م. : العالم البيزنطى، ترجمة وتعليق: رأفت عبد الحميد، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٤م.
- وديع فتحى عبد الله : بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية (فى عهد بازيل الأول المقدونى)، (٨٦٧ - ٨٨٦م / ٢٥٣ - ٢٧٣هـ)، الإسكندرية ١٩٩٢م.
- وسام عبد العزيز فرج : الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط (من نهاية القرن السابع حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى)، الحولية التاسعة، الرسالة الثانية والخمسون، آداب الكويت ١٩٨٨م، ص١١ - ٨٥.
- دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤ - ١٠٢٥م، الإسكندرية ١٩٨٢م.

